

محاكمة الوهم

دَيّن الوعي وثمن الطمأنينةِ المزيفة

علي ابراهيم خليل الخفاجي

الفهرس

الفصل الأول: فخ «السعادة الإلزامية» 5
الفصل الثاني: صناعة المقارنات الملعونة 27
الفصل الثالث: سيكولوجية القطيع الرقمي 39
الفصل الرابع: وهم السيطرة المطلقة 51
الفصل الخامس: العودة إلى الذات العارية 63

تنبيه القارئ

هذا الكتاب لا يخاصم الأمل ولا الإيمان. إنه يخاصم تحويلهما إلى شعارات تجارية تُستخدم لإسكات الألم وإدانة الإنسان حين يتعب.

خريطة الرحلة

الفصل الأول: السعادة حين تتحول من شعور طبيعي إلى واجب.
الفصل الثاني: المقارنة حين تجعل الشاشة مقياساً للذات.
الفصل الثالث: القطيع الرقمي حين يصير الاختلاف تهمة.
الفصل الرابع: السيطرة حين تنسى النفس حدود قدرتها.
الفصل الخامس: العودة إلى ذات صادقة، مؤمنة، وغير قابلة للبيع.

مفتاح القراءة

اقرأ ببطء · اترك للأفكار وقتها · لا تبحث عن نسخة مثالية من نفسك

«الطمأنينة التي تُشترى بثمن إنكار الحقيقة ليست طمأنينة.»

«إلى كل من تعب من التظاهر بأنه بخير»
«وإلى كل من عرف أن الصدق مع النفس ليس ضعفاً»
«وإلى كل قلب يبحث عن طمأنينة لا تطلب منه أن يخون حقيقته.»

قبل أن تبدأ المحاكمة

هذا الكتاب لا يخاصم السعادة، ولا يهاجم الأمل، ولا يدعو إلى التشاؤم. إنه يحاول فقط أن يميّز بين النور الحقيقي والضوء الذي يُسلَّط على الوجه كي يخفي ما وراءه. فليس كل خطاب يرفع شعار القوة نافعاً، وليس كل ابتسامة دليلاً على العافية، وليس كل دعوة إلى تجاوز الألم سوى باب آخر للهروب منه.

نحن نعيش في زمن كثرت فيه الوصفات الجاهزة للحياة. يقال لنا كيف ننجح، وكيف نبدو ناجحين، وكيف نتصرف حين نحزن، وكيف نرد على الخيبة، وكيف نغلق أبواب الذاكرة بسرعة كي نلحق بصورة جديدة لنا. حتى التعب صار يحتاج إلى تبرير، والحزن صار تهمة، والتردد صار عيباً، والاعتراف بعدم القدرة صار كأنه سقوط أخلاقي.

لكن الإنسان ليس مشروعاً إعلانياً. ليس صفحة تحتاج إلى تحسين مستمر كي تستحق النظر. فيه ضعف وقوة، إقبال وإدبار، وضوح وحيرة، فرح وحزن. وهذه التناقضات ليست عيوباً طارئة في تركيبته؛ إنها بعض ما يجعله إنساناً.

سنفكك في هذه الصفحات أوهاماً تبدو لطيفة في ظاهرها: وهم السعادة الدائمة، وهم الحياة التي يجب أن تشبه حياة الآخرين، وهم الجماعة التي تمنحنا اليقين لأنها تصرخ بصوت واحد، ووهم السيطرة المطلقة الذي يجعلنا نحمّل أنفسنا ذنب كل ما يقع حولنا. ثم نحاول أن نعود إلى ذات لا تحتاج إلى قناع كي تكون جديرة بالاحترام.

لن تكون العودة إلى الذات دعوة إلى الأنانية أو الانفصال عن الناس. ولن تكون مواجهة الوهم تمرداً على الإيمان أو رفضاً للقدر. على العكس، إن معرفة حدودنا قد تكون باباً إلى التواضع، والتوكل، والرحمة، والعمل المسؤول. فالإنسان لا يملك كل شيء، لكنه يملك موقفه، وسعيه، وصدقه، وطريقة معاملته لمن حوله.

اقرأ هذا الكتاب ببطء. لا تبحث فيه عن جملة تصلح منشوراً سريعاً، ولا عن وصفة تنهي تعقيدك في سبع خطوات. بعض الأفكار تحتاج أن تبقى فيك قليلاً قبل أن تفهم لماذا أزعجتك. وبعض الأسئلة لا تأتي لتمنحك جواباً فورياً، بل لتمنعك من العودة إلى جواب قديم لم يعد يشبهك.

كيف تقرأ هذا الكتاب

الفصول التالية ليست سلّماً تصعده ثم تصل إلى نسخة مثالية من نفسك. إنها خمس محاكمات متتابعة لفكرة واحدة: أن الطمأنينة التي تُشترى بثمن إنكار الحقيقة ليست طمأنينة، وأن الوعي الذي لا يحتمل رؤية ضعفه وواقعه يتحول بسهولة إلى وعي قابل للقيادة.

في كل فصل سنبدأ من ظاهرة يومية، ثم ننظر إلى جذورها النفسية والاجتماعية، ونضعها أمام أسئلة أخلاقية وروحية. لن نعامل القارئ كمتهم، فالكاتب يقف في القفص نفسه. نحن جميعاً نبتسم أحياناً كي لا نشرح، ونقارن أنفسنا بغيرنا، ونخاف من الخروج عن رأي الجماعة، ونتصرف كأن السيطرة ممكنة كي لا نشعر بعجزنا. الفرق أن الاعتراف بهذه المشاركة يفتح باب التغيير، بينما إنكارها يغلقه.

ملاحظة أخيرة

الأمثلة والقصص الواردة في هذا الكتاب مشاهد أدبية مركبة، استُخدمت لتقريب المعنى لا لتقديم حالات تشخيصية أو أحكام عامة على الناس. وما يرد عن الحزن والإنهاك والقلق لا يغني عن طلب المساعدة المتخصصة عند الحاجة. احترام الإنسان يقتضي ألا نحوله إلى شعار، وألا نحول ألمه إلى مادة للوعظ السريع.

الفصل الأول: فخ «السعادة الإلزامية»

حين يصير الشعور امتحاناً

في مشهد يمكن أن يقع في أي مدينة، يعود رجل إلى بيته بعد يوم ثقيل، يضع مفاتيحه على الطاولة، ويبقى واقفاً لحظة كأنه نسي لماذا دخل. لم تقع كارثة، ولم ينته العالم، لكن أشياء صغيرة تراكمت فيه: كلمة جارحة من مديره، خبر مقلق عن أبيه، قسط اقترب موعده، ووجهه في مرآة المصعد وقد بدا أكبر مما يتذكر. يفتح هاتفه، فتستقبله صورة لرجل يضحك على شاطئ، وتحتها عبارة واثقة: «السعادة قرار». يقرأها مرة، ثم مرة أخرى، ويشعر أن التعب الذي كان يحمله صار تهمة. لم يعد السؤال: ماذا أثقلك اليوم؟ بل: لماذا أخفقت في اختيار السعادة؟

هنا يبدأ الفخ. فالسعادة، وهي شعور قد يزور الإنسان حين تتسع له الحياة أو حين يلمح معنى في قلب ضيقها، تتحول إلى واجب دائم، ثم إلى علامة على سلامة الشخصية، ثم إلى شهادة أخلاقية. لا يكفي أن يكون الإنسان أميناً في عمله، رحيماً بأهله، مجتهداً في واجباته؛ عليه أيضاً أن يؤدي هيئة المبتهج. وإذا تعثر وجهه، سارع من يذكره بأن غيره يعيش ظروفاً أشد. كأن وجود ألم أكبر في العالم يبطل الألم الأصغر، وكأن القلب محكمة لا تقبل الشكوى إلا ممن يحتل المرتبة الأولى في قائمة المنكوبين.

ليست المشكلة في الدعوة إلى الأمل، ولا في تذكير النفس بما لديها من نعم. المشكلة أن يُطلب من الشعور أن يطيع أمراً لا يملك الإنسان تنفيذه على هذا النحو. يستطيع المرء أن يختار بعض أفعاله، وأن يتدرب على بعض عاداته، وأن يقاوم استرسالاً يؤذيه؛ لكنه لا يستطيع دائماً أن يستدعي الفرح كما يستدعي سيارة. وقد يعمل عملاً صالحاً وهو حزين، ويؤدي حقاً وهو خائف، ويصبر من غير أن تتبدل ملامحه إلى ابتسامة.

حين نجعل السعادة واجباً، نضيف إلى المشقة مشقة تفسيرها، وإلى الحزن خجلاً منه. يصبح الإنسان متعباً مرتين: مرة مما أصابه، ومرة من اضطراره إلى إخفاء أثره. وما يحتاجه، قبل أي نصيحة، أن يُسمح له بأن يكون بشراً، لا إعلاناً ناجحاً عن الحياة.

من الوعد إلى السلعة

في قاعة مضاءة بعناية، يقف رجل أمام جمهور جاء بأحلام متفاوتة: شاب يريد عملاً، وامرأة تريد أن تستعيد ثقتها بعد خسارة، وموظف يريد أن يتوقف عن الشعور بأنه أقل من زملائه. على الشاشة خلف المتحدث طريق صاعد نحو شمس كبيرة. يتحدث عن الانتصار على الأعذار، ثم يعرض برنامجاً مدفوعاً، ثم مستوى أعلى من البرنامج، ثم لقاء خاصاً لمن يريد «تحولاً حقيقياً». لا يكون الخداع دائماً صريحاً، قد توجد في الكلام فائدة، وفي التدريب مهارة، وفي المتحدث حسن نية. لكن الوعد يبدأ في التمدد حتى يبتلع حدود ما يمكن تقديمه. ليس شراء كتاب أو حضور دورة عيباً، وليس كل عمل يتصل بتطوير النفس تجارة زائفة. الإنسان يحتاج إلى التعلم، وقد ينتفع بمن يعلمه التنظيم أو التواصل أو إدارة المال. غير أن الفرق واسع بين بيع معرفة محددة، وبيع وعد مبهم بالخلاص. في الحالة الأولى يعرف المرء ما يتعلمه وما لا يتعلمه. وفي الثانية يشتري صورة عن نفسه: النسخة الواثقة، المشرقة، المنضبطة، التي لا تتردد ولا تحزن إلا لتنهض أقوى فوراً. وحين لا يصل إليها، قد يُقال له إن المشكلة في مقاومته الداخلية، أو ضعف التزامه، أو نقص استثماره في ذاته.

هكذا تستطيع السلعة أن تحمي نفسها من الفشل. نجاح المشتري دليل على جودة الوعد، وإخفاقه دليل على عيب فيه. ويبقى الوعد سالماً، مستعداً للبيع من جديد. أما الحياة، بما فيها من مرض وفقر وفقد ومسؤوليات وأبواب مغلقة، فتُختصر في كلمة مريحة للبائع: «عقلية». يصبح ما لا يمكن تغييره بسهولة خللاً في التفكير، وتتحول الظروف من وقائع تستحق الفهم إلى أعذار ينبغي التخلص منها.

أخطر ما تفعله هذه التجارة أنها لا تبيع السعادة وحدها، بل تبيع للإنسان طريقة لمحاكمة نفسه. تمنحه مسطرة ناعمة الملمس، حادة الأثر، يقيس بها كل يوم مدى ابتعاده عن الصورة المطلوبة. وما كان يفترض أن يساعده على الحياة قد يصير عملاً إضافياً فيها: مراقبة مزاجه، وتصحيح لغته، وتأنيب ضميره، وتمويل محاولة جديدة ليصبح مقبولاً لدى الوعد.

اللغة التي لا تسمح بالتعب

للمنشورات المبتسمة معجم يكاد يتكرر مهما اختلفت الصور: طاقة، شغف، استحقاق، نجاح، امتنان، نسخة أفضل. ليست هذه الكلمات مذنبة في ذاتها؛ فلكل واحدة منها معنى نافع في موضعها. لكن استعمالها المتواصل بلا تمييز قد يحولها إلى ستار. حين تصبح كل خسارة «فرصة»، وكل خذلان «درساً»، وكل ضيق «دعوة إلى الارتقاء»، تختفي من اللغة كلمات

يحتاجها الإنسان ليفهم ما جرى له: ظلم، فراق، إنهاك، خوف، حيرة. لا تتغير الوقائع، لكن أسماءها تُسحب منها، وكأن تسمية الشيء بما هو عليه شكل من أشكال الهزيمة.
تكتب امرأة عن سنوات قضتها في رعاية أم مريضة، فلا تجد عبارة تنشرها إلا: «رحلة علمتني القوة». وقد تكون الرحلة علمتها القوة حقاً، لكنها علمتها أيضاً معنى السهر الذي لا ينتهي، والخوف من رنين الهاتف، والغضب الذي تخجل منه، والحنين إلى يوم لا تحتاج فيه إلى أن تكون قوية. ليس في قولها الأول كذب بالضرورة، لكنه قد يكون جزءاً صغيراً من الحقيقة يُعرض مكانها كلها. وحين تقرأه امرأة أخرى تعيش التجربة نفسها، تشعر أنها وحدها لم تنجح في تحويل التعب إلى حكمة براقة.
تسحب هذه اللغة من التجربة ترددها، وتطلب من الإنسان أن يتكلم بعد أن يكون قد رتّب كل شيء. لا مكان في المنشور المصقول للجملة المكسورة: «لا أعرف بعد». ولا للصمت الذي لا يحمل رسالة. ولا للأيام التي لا ينتج عنها درس واضح. يبدو أن الألم لا يكتسب حق الظهور إلا إذا جاء مصحوباً بفائدة، كأن الحياة تقبل الفواتير المعنوية وترد ما لا يثبت جدواه.
لكن بعض التجارب تحتاج زمناً قبل أن نفهمها، وبعضها يظل فقداً مهما تعلمنا منه. ليست اللغة الصادقة لغة سوداء؛ إنها لغة تترك مساحة للنعمة والمصيبة، للقدرة والعجز، لما عرفناه وما لم يتضح لنا. أما اللغة التي تفرض الابتسام، فقد تُحسن هيئة الجملة وتسيء إلى صاحبها. تمنحه كلاماً صالحاً للنشر، وتسلبه كلاماً صالحاً للاعتراف.

الإيجابية حين تصبح أداة إسكات

الإيجابية النافعة لا تعادي الحقيقة. قد تقول للمتعب: إن الطريق لم ينته، وإن في وسعك أن تبحث عن خطوة تالية، وإن هذه الخسارة لا تختصر قيمتك. أما الإيجابية التي تؤذي، فتبدأ غالباً من الموضع الذي ينبغي أن تنصت فيه، وتقفز عنه. تقول له: لا تفكر هكذا، لا تكن سلبياً، انظر إلى الجانب الجميل. لا تسأل عما حدث، ولا عن حجم الأذى، ولا عن حاجته الآن. إنها تطالب بتغيير النبرة قبل فهم السبب، وكأن المعاناة مشكلة في طريقة عرضها لا في واقعها.
في مجلس صغير، تخبر امرأة صديقتها أن زواجها صار مكاناً للخوف والإهانة. تجيب الصديقة، راغبة في الخير ربما: «ركّزي على حسناته، كل البيوت فيها مشكلات». الجملة ليست باطلة في كل مقام، لكنها هنا قد تردم الفروق بين خلاف عابر وأذى متكرر. وقد تمنع سؤالاً

ضرورياً عن الأمان والحقوق، وتحوّل طلب المساندة إلى نقص في الامتنان. وفي مكان آخر، يشكو عامل من راتب لا يكفي ضروراته، فيقال له: «احمد الله، غيرك بلا عمل». نعم، وجود العمل نعمة، لكن الاعتراف بالنعمة لا يجعل الأجر غير الكافي عادلاً، ولا يسقط حق المطالبة بتحسينه.

تصير الإيجابية سامة حين تُستعمل لإبقاء الواقع على حاله، أو لإعفاء السامع من مشقة التعاطف، أو لحماية صاحب القوة من المساءلة. عندئذ لا يعود الهدف أن يجد المتألم منفذاً، بل أن يتوقف عن إزعاج الآخرين بألمه. يُعاد تفسير اعتراضه باعتباره عيباً في شخصيته، فتنتقل القضية من الفعل المؤذي إلى رد الفعل عليه. ويجد نفسه مضطراً إلى إثبات أنه ليس جاحداً قبل أن يشرح أنه متضرر.

قد تكون الكلمة المشجعة رحمة، وقد تكون عنفاً ناعماً. الفارق ليس في إشراقها، بل في علاقتها بالواقع وبحرية من يسمعها. هل تفتح له احتمالاً، أم تغلق فمه؟ هل تساعده على رؤية ما يستطيع فعله، أم تحمله مسؤولية ما وقع عليه؟ حين لا تحتمل الإيجابية سماع الحقيقة، فإنها لا تحمي الأمل؛ تحمي وهماً يريد أن يظل مريحاً لمن لم يدفع ثمنه.

الحزن الذي يُطرد من البيت

في بيت اعتاد أن يصف نفسه بأنه متماسك، يفقد الابن عملاً كان يعوّل عليه. يجلس إلى المائدة قليل الكلام، فيبدأ أبوه بتعداد النعم، ثم تذكره أمه بأن العبوس يضيق الصدر، ثم يقول أخوه مازحاً إن الدنيا لا تتوقف على شركة. كل واحد منهم يحاول، بطريقته، أن يعيده إلى الحياة. لكن الابن يسمع شيئاً آخر: حزنك غير مرحب به هنا. وبعد أيام، يتعلم أن يجيب عن السؤال قبل أن يُطرح: «أنا بخير». يصبح أكثر لطفاً على المائدة، وأقل حضوراً في البيت.

ليس ضغط الأسرة دائماً قسوة مقصودة. قد يخاف الأهل من حزن من يحبون، لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون أمامه. وقد يظنون أن الاعتراف به سيزيده، وأن الكلام الواثق يسد الطريق على الانهيار. وربما حملوا من تربيتهم القديمة فكرة أن البيت الطيب لا يُظهر ضعفه، وأن الشكوى تنقص قدر الرجل أو تفضح تربية المرأة. لكن المحبة، حين لا تراجع وسائلها، قد تفرض على محبوبها تمثيلاً شاقاً. تطلب منه أن يطمئنها في الوقت الذي يحتاج فيه إلى من يطمئنه.

تتضاعف المشكلة حين تختلط المشاعر بالولاء. تُقال للابنة المتعبة: «نحن وفرنا لك كل شيء، مم تشكين؟» ويُقال للأب المثقل: «وجودنا حولك ينبغي أن يسعدك». كأن الحزن شهادة

ضد الأسرة، لا تجربة يمكن أن تقع داخل أسرة محبة. والحقيقة أن الإنسان قد يحب أهله ويشعر بالوحدة، وقد يقدر ما بذلوه ويحتاج إلى شيء لم يستطيعوا منحه، وقد يحزن لأسباب لا يملك شرحها كاملة. لا يلزم من هذا اتهام أحد، ولا نكران معروفه.

البيت الذي يحتمل الحزن لا يتحول إلى مأتم دائم. إنه فقط لا يعاقب من خلع قناعه. وقد تكون أكرم جملة فيه: «لست مطالباً بأن تبدو بخير من أجلنا». تسمح هذه الجملة للمحبة أن تستعيد وظيفتها؛ فلا تكون مراقبة للوجوه، بل صحبة للإنسان في تغيرها. وربما عاد الفرح إلى المائدة حين لم يعد أحد مضطراً إلى تقديمه قبل الطعام.

الموظف الذي يجب أن يلمع

في العمل، تتخذ السعادة الإلزامية هيئة أكثر انضباطاً. لا يُطلب من الموظف أن يؤدي مهمته فحسب، بل أن يبدو شغوفاً بها، ممتناً لكل ضغط، متحمساً لكل تغيير. تُعلق عبارات عن الأسرة الواحدة، بينما تُمدد ساعات العمل من غير نقاش كافٍ. ويُحتفى بمن يرد على الرسائل في الليل، ثم تتحول مبادرته إلى معيار صامت للجميع. من يغلق هاتفه بعد انتهاء يومه لا يُتهم بالتقصير مباشرة؛ يقال إنه لا يملك الروح المطلوبة.

تجلس موظفة في اجتماع تتوالى فيه المهمات. تعرف أن الوقت المتاح لا يكفي، فتقول بهدوء إن الخطة تحتاج إلى تعديل. يبتسم المسؤول ويطلب «طاقة إيجابية». لا يناقش حسابها للوقت، ولا يسأل عن توزيع العبء. تصبح ملاحظتها الواقعية مزاجاً غير مناسب للاجتماع. تتعلم بعد ذلك أن تكتب في دفترها ما لا تقوله بصوت مسموع، وأن تبتسم عند تسلم عمل تعرف أنها ستؤديه على حساب نومها وبيتها. يبدو الفريق أكثر انسجاماً، بينما تقل قدرته على معرفة ما يحدث فيه.

ليست المهنية تصريحاً بإطلاق كل انفعال، ولا حقاً في إيذاء الزملاء بحجة الصدق. للعمل آدابه، ومن حق الناس ألا تُصب عليهم مرارة لا تخصهم. لكن ثمة فرقاً بين تهذيب التعب وإنكاره، وبين التعاون واعتبار الحدود خيانة. يستطيع المرء أن يكون محترماً وغير متحمس، ملتزماً وغير سعيد، وأن يطلب وضوحاً في المسؤوليات من غير أن يكون خصماً للمؤسسة. لا يحتاج العقد المهني إلى امتلاك القلب، ولا يجوز أن يصبح الراتب مقابلاً لصناعة ولاء عاطفي دائم.

حين تفرض البهجة في العمل، قد تتعطل المعلومات التي يحتاجها العمل نفسه. لا يُبلّغ عن مشكلة مبكراً، ولا تُناقش خطة غير واقعية، ولا يظهر الإرهاق إلا بعد أن يصير تعطلاً. إن

المؤسسة التي تسمع الاعتراض المسؤول لا تتخلى عن الطموح؛ تحميه من الوهم. أما التي تريد وجوهاً لامعة طوال الوقت، فقد تنجح في تصوير جماعي ممتاز، وتفشل في رؤية الأشخاص الواقفين فيه.

حين يُختصر العالم في «عقليتك»

من أكثر الجمل إغراء في خطاب النجاح أن كل شيء يبدأ من الداخل. فيها بعض الحق؛ فطريقة النظر قد تؤثر في الفعل، والخوف قد يعطل فرصة، والعادة قد تفتح باباً أو تغلقه. لكن الجملة تتمدد أحياناً حتى تصير كل شيء ينتهي في الداخل أيضاً. عندئذ تختفي الفروق بين من يملك وقتاً للتعلم ومن يعمل طوال يومه، وبين من يسكن قرب الفرص ومن لا يستطيع الوصول إليها، وبين من يستند إلى مال وعلاقات ومن يبدأ مثقلاً بدين أو مسؤولية رعاية.

لنتخيل شابين يحاولان بناء مشروع صغير. أحدهما يستطيع أن يخسر المحاولة من غير أن يفقد بيته، والآخر يغامر بمال يحتاجه أهله للطعام. قد يعمل الاثنان بجد، وقد يكون الثاني أكثر مهارة، لكن معنى المخاطرة ليس واحداً. إذا نجح الأول، يسهل أن تُروى حكايته بوصفها انتصاراً للجرأة. وإذا تردد الثاني، يسهل اتهامه بالخوف. وما غاب عن الروايتين أن الشجاعة لا تُقاس خارج الثمن المحتمل، وأن الإقدام الذي يبدو بسيطاً من شرفة آمنة قد يكون قراراً بالغ الخطورة لمن لا يملك أرضاً يعود إليها.

الاعتراف بالظروف ليس عبادة لها، ولا دعوة إلى انتظار عدل كامل قبل العمل. يستطيع الإنسان أن يسعى في واقع ناقص، وأن يحاول توسيع الممكن، وأن يراجع ما بيده. لكن السعي يصبح أصدق حين يعرف حدود الأرض التي يمشي عليها. لا ينتفع الفقير كثيراً بمن يطلب منه أن يتصرف كأن الفقر فكرة، ولا ينتفع المظلوم بمن يعلمه أن ينظر إلى الظلم باعتباره اختباراً لمرونته فقط. ثمة حقوق ينبغي أن تُصان، وأنظمة ينبغي أن تُراجع، وتكاليف لا يجوز إلقاؤها على الضمير الفردي.

يفقد تطوير الذات نزاهته حين يتحول إلى بديل عن إصلاح الواقع. ويصير أكثر نفعاً حين يضع الإنسان في موقع الفاعل من غير أن يجعله سبب كل ما وقع له. فالقدرة على الفعل لا تعني القدرة على التحكم في النتائج، والمسؤولية لا تعني الذنب الشامل. وبين الاستسلام للظروف وإنكارها مساحة واسعة للعمل المتواضع، الذي لا يَعِد بمعجزة ولا يهين من لم تحدث له.

ليس كل يوم مادة للتحسين

تستيقظ امرأة قبل أهل بيتها، تعد الطعام، وتذهب إلى عملها، ثم تعود إلى واجبات لا تظهر في بطاقة وظيفية. في آخر الليل، حين يهدأ البيت، تفتح هاتفها فتجد قائمة بما يفعله الناجحون قبل النوم: قراءة، مراجعة أهداف، تعلم مهارة، تأمل، كتابة امتنان، استعداد مبكر للصباح. تنظر إلى الساعة وإلى يديها، وتشعر أنها أضاعت يوماً آخر. لم تكن خاملة، لكنها لم تصغ تعبها في الصورة المعترف بها للإنجاز. الأعمال التي أبقت حياة الآخرين ممكنة لا تمنحها لمعان الإنجاز المنشور.

ثمة خطاب يتعامل مع اليوم كأنه منجم ينبغي ألا يبقى فيه موضع غير مستخرج. الوقت الذي لا يُستثمر يبدو مهدوراً، والراحة لا تحصل على شرعيتها إلا إذا أعادت المرء أكثر إنتاجاً. حتى النزهة تصبح وسيلة لتنشيط الذهن، والقراءة وسيلة لزيادة المهارة، والنوم مشروعاً لتحسين الأداء. لا يبقى للحياة حق في أن تُعاش لذاتها. يتحول الإنسان إلى مدير دائم لنفسه، ويجلس داخله مراقب يسأل، حتى في لحظة السكون: ما الفائدة التي حققتها الآن؟

ليس الانضباط عدواً للرحمة، ولا التنظيم إهانة للعفوية. قد تنقذ عادة صغيرة يوماً مزدحماً، وقد يخفف ترتيب الأولويات عبئاً كبيراً. لكن التنظيم الذي لا يرى تفاوت الطاقة والواجبات يصير نموذجاً مفروضاً على أجساد وحيوات مختلفة. قد يحتاج شخص إلى مزيد من الحركة، ويحتاج آخر إلى إذن بالتوقف. وقد تكون الخطوة الشجاعة في يوم ما إنجاز مهمة مؤجلة، وفي يوم آخر رفض مهمة لا يمكن حملها. لا تصلح وصفة واحدة لكل ذلك لمجرد أنها كُتبت بخط واثق.

للحياة إيقاع لا يستقيم دائماً مع المخطط. وفي بعض الأيام يكون الحفاظ على الضروري عملاً كافياً، لا بطولة ينبغي تسويقها، ولا تقصيراً ينبغي الاعتذار عنه. من حق الإنسان أن يمر بيوم عادي لا يخرج منه بنسخة أفضل من نفسه. ربما يكفي أنه لم يتخل عن واجبه، ولم يؤذ أحداً، وبلغ الليل بما استطاع. ليست كل ساعة ورشة، وليس كل تعب دليلاً على سوء الإدارة.

الرجاء يرى الباب، والإنكار يرسمه

يجلس رجلان أمام باب مغلق. يقول الأول: لا باب هنا، وكل ما نحتاج إليه أن نغير شعورنا. ويقول الثاني: الباب مغلق، وقد لا يفتح الآن، لكن يمكن أن نبحث عن مفتاح، أو نسأل من وراءه، أو نختار طريقاً آخر. الأول أكثر لمعاناً في عبارته، والثاني أقرب إلى

الرجاء. فالرجاء لا يشترط حذف العائق؛ يبدأ بمعرفته، ثم يرفض أن يمنحه سلطة مطلقة على المستقبل. أما الإنكار فيحتاج إلى تشويه الحاضر كي يحافظ على راحته.
ينتظر أب خبراً عن علاج ابنه. يفتح له الرجاء مساحة للدعاء والأخذ بالأسباب، ولسؤال أهل الاختصاص، وللتماسك الذي يتيح له رعاية أسرته. لكنه لا يضمن نتيجة بعينها، ولا يمنعه من الخوف. يمكنه أن يقول: أخشى، وأرجو. لا تناقض في اجتماع الكلمتين، لأن كل واحدة تتصل بوجه من التجربة. أما حين يطالبه المحيطون به بألا يتصور إلا النهاية التي يحب، فقد يجد نفسه عاجزاً عن السؤال الضروري، أو عن الاستعداد لاحتمال مؤلم، كأن الاستعداد استدعاء للمصيبة.
الرجاء أوسع من التفاؤل بنتيجة محددة. قد يرجو الإنسان أن ينال ما طلب، وقد يرجو، إن لم ينله، أن يعان على ما يأتي، وأن يجد معنى ورفقة وقدرة على الاستمرار. لا يصبح بذلك بارداً تجاه أمنيته، ولا متنازلاً عن الدعاء لها؛ لكنه لا يحصر الخير كله في صورة واحدة. هذه السعة تمنع الأمل من أن يتحول إلى صفقة: سأثق ما دامت الأمور تسير كما أريد، فإذا خالفتني الحياة انهار الأساس كله.
ومن ثم، لا يكون الكلام الصادق عن الصعوبة عدواً للرجاء. قد يكون شرطاً له، لأن الباب الذي نعرف أنه مغلق نستطيع أن نفكر فيه، أما الباب الذي ننكره فلا يمكن التعامل معه. الرجاء يحتمل الأرقام والوقائع والأسئلة الصعبة، ويظل بعدها رجاء. إنه لا يَعِد الإنسان بأنه لن يتألم، بل يرفض أن تكون آلامه الكلمة الأخيرة عن وجوده. وبين الوعدين فرق يحدد ما إذا كنا نواسي شخصاً، أم نطالبه بالعيش داخل رسم.

الحزن النبيل لا يحتاج إلى بطولة

في آخر مجلس عزاء، بعدما انصرف الناس، يبقى ابن قرب كرسي أبيه. لا يفعل شيئاً لافتاً. يمد يده إلى موضع كان الأب يضع فيه نظارته، ثم يعيدها. في الأيام المقبلة سيتعلم تفاصيل غياب لم يكن يعرف أنها ستؤلمه: سؤال لا يستطيع أن يسأله، خبر لا يجد من يرويه له، صوت يشبه صوت أبيه فيلتفت قبل أن يتذكر. ليس هذا الحزن نقصاً في الصبر، ولا رفضاً للحياة. إنه الوجه الآخر لعلاقة كان لها وزن، وقد بقي وزنها حين غاب صاحبها.
الحزن النبيل ليس حكراً على الفقد بالموت. قد يحزن المرء على صداقة تبدلت، أو على مدينة تشوهت، أو على ظلم يراه ولا يملك دفعه كله، أو على خطأ ارتكبه وأدرك أثره في غيره. يكون الحزن نبيلاً حين يشهد على قيمة، لا حين يتخذ هيئة جميلة. قد يكون مرتبكاً وثقيلاً

وقليل الكلام، وقد لا يمنح صاحبه أي فصاحة. نبله ليس في جودة التعبير عنه، بل في صلته بالمحبة أو الأمانة أو الإحساس بحق لم يُؤد.
لا يعني ذلك أن كل ما ينتجه الحزن مقبول. يستطيع الإنسان أن يحزن لسبب كريم ثم يسيء إلى من حوله، أو يحبس نفسه في لوم لا ينفع أحداً. القيمة التي وراء الشعور لا تمنحه حصانة من المراجعة. لكن مراجعة السلوك شيء، واحتقار الشعور شيء آخر. يمكن أن نقول للمتألم إن قسوته على أطفاله غير عادلة، من غير أن نقول إن وجعه وهم. ويمكن أن ندعوه إلى الاعتذار، من غير أن نطالبه بأن يثبت تعافيه بابتسامة.
لا يحتاج الحزن إلى تحويل صاحبه إلى بطل حتى يستحق الاحترام. بعض الناس لا يخرجون من خساراتهم أكثر حكمة في كل شيء؛ يخرجون فقط وقد عرفوا نقصاً لا يُستدرك. وربما تكون كرامتهم في استمرارهم الهادئ، وفي حفظهم لحقوق الآخرين مع ثقل ما يحملون. ليس مطلوباً من كل قلب مكسور أن يعلّم الناس درساً. يكفي أحياناً ألا نطالبه بتبرير كسره، وألا نحول محبته السابقة إلى خطأ لأنه يدفع ثمنها الآن.

حين يتحول الألم إلى هوية

إذا كانت السعادة الإلزامية تنكر الحزن، فإن الطرف المقابل قد يمنحه سيادة لا يستحقها. يتعلم بعض الناس، أحياناً، أن الألم وحده يجعل كلامهم عميقاً، وأن خفة الروح سطحية، وأن كل لحظة فرح خيانة لما مروا به. يعتنون بصورة المتألم كما يعتني آخرون بصورة الناجح. لا يقولون إنهم حزينون في هذه المرحلة، بل يتصرفون كأن الحزن هو حقيقتهم النهائية، وإن خرجوا منه فقدوا ما يميزهم عن الآخرين.
في مثال أدبي آخر، يكتب رجل عن خيبته سنوات طويلة. في البداية كانت الكآبة نافذة، يضع فيها ما لا يستطيع قوله. ثم صارت الخيبة مرجعاً لكل حدث: صديق تأخر عن الرد، فيثبت أن أحداً لا يهتم؛ فرصة لم تناسبه، فيثبت أن العالم مغلق؛ لقاء طيب، فيرتاب لأنه لم يأت على هيئة توقعه. وحين يشعر براحة عابرة، يبحث سريعاً عن سبب يعيده إلى مألوفه. ليس لأنه يحب الضرر بالضرورة، بل لأن الخروج من الحكاية التي عرف بها نفسه يحتاج إلى تصور جديد لم يتعلمه بعد.
عبادة الألم لا تعني كثرة البكاء، ولا طول الحداد، ولا العجز عن تجاوز تجربة صعبة في موعد يحدده الآخرون. إنها تظهر حين يصبح الألم معصوماً من السؤال، ومصدراً لكل حكم، وذريعة ثابتة لتعطيل الحقوق. عندئذ لا يعود الإصغاء إليه معرفة، بل طاعة. يطلب من

الإنسان أن يفسر العالم كله من خلاله، وأن يستبعد ما لا يوافقه. ويغدو كل اقتراب من الحياة تهديداً لمكانة الجرح.
الخروج من ذلك لا يكون بإهانة الماضي، ولا بإعلان أن ما حدث صار خيراً. يستطيع المرء أن يحتفظ بحقه في تسمية الأذى، وأن يسمح، في الوقت نفسه، بتجارب لا تشبهه. ما وقع فصل من حياته، وقد يكون فصلاً بالغ الأثر، لكنه ليس المؤلف الوحيد لبقيتها. ويمكنه أن يظل وفياً لمن فقد، من غير أن يمنع نفسه من الأنس، وأن يتذكر الإساءة من غير أن يمنح المسيء حق تنظيم كل علاقاته المقبلة. للألم حق في أن يُسمع، لا حق في أن يحكم بلا نهاية.

الحوار الذي يجري خلف الوجه

حين أغلق الرجل هاتفه تلك الليلة، لم يصمت ما فيه. قال صوت سريع: أنت تبالغ. لديك بيت وعمل وأسرة، وغيرك لا يجد ذلك. أجابه صوت أبطأ: أعرف ما لدي، لكنني متعب. قال الأول: لو كنت ممتناً حقاً لما ضاق صدرك. قال الثاني: هل الامتنان يلغي التعب؟ سكت لحظة، ثم عاد الصوت الأول إلى عبارته المحفوظة: ينبغي أن تكون أقوى. هنا لم يعد الرجل يعرف من يحاوره؛ أباه، أم مديره، أم ذلك المتحدث الذي شاهده، أم صورة قديمة عن نفسه لا تقبل أن يراها أحد وهي ترتجف.
هذا الحوار الداخلي لا يحتاج إلى جمهور كي يمارس سلطته. قد يحمل الإنسان محكمة كاملة في صدره، يمثل فيها دور المتهم والقاضي والشاهد. وكلما حاول أن يشرح ما يشعر به، قدم ضده دليلاً: تأخرك عن مهمة، انزعاجك من اتصال، حاجتك إلى الراحة، حتى دمعة أفلتت منك. لا تُعامل هذه الأشياء بوصفها وقائع قابلة للفهم، بل علامات على ضعف يجب استئصاله. ومن شدة المحاكمة، يعجز عن السؤال البسيط الذي كان يمكن أن يبدأ منه: ما الذي أثقلني تحديداً؟
جرب الرجل أن يبدل شكل الحوار، لا بأن يمدح نفسه بلا سبب، بل بأن يطلب من القاضي معلومات. «أنت تقول إنني ضعيف؛ ما الفعل الذي تقصده؟ هل أخلفت وعداً، أم أنني لم أبدُ سعيداً؟ أنت تقول إنني جاحد؛ هل أنكرت نعمة، أم اعترفت بمشقة؟ أنت تقول إن كل شيء بيدي؛ فما الذي أستطيع تغييره الليلة فعلاً؟» لم يحصل على إجابات كاملة، لكنه لاحظ أن الكلمات الكبيرة بدأت تفقد قدرتها على إغلاق الكلام.
ليس في ذلك انتصار سريع على الحزن. ظل الخبر المقلق قائماً، والقسط قريباً، والكلمة الجارحة مؤلمة. لكنه لم يعد مضطراً إلى إضافة حكم شامل على قيمته إلى كل واقعة. وبين

مساء يدين فيه الإنسان نفسه كلها، ومساء يسأل فيه عن شأن محدد، فرق صغير في الظاهر، كبير في المعنى. الأول يجعل النفس خصماً ينبغي قهره، والثاني يجعلها أمانة ينبغي فهمها. ولا تبدأ الرحمة دائماً من عبارة حنونة؛ قد تبدأ من سؤال دقيق يمنع الظلم.

الإصغاء الذي يميز ولا يستسلم

الإصغاء للألم ليس أن نصدق كل ما يقوله في لحظة اشتداده. قد يقول الحزن إن لا أحد يحبنا، بينما الواقع أن شخصاً معيناً خذلنا. وقد يقول الخوف إن كل محاولة ستفشل، بينما ما نعرفه أن محاولة سابقة فشلت. وقد يقول الإنهاك إن الحياة كلها بلا معنى، بينما نحن، في تلك الساعة، لا نملك طاقة لرؤية معناها. احترام الشعور لا يفرض التسليم بتعميماته. نستطيع أن نعترف بصدق التجربة من الداخل، وأن نراجع الحكم الذي بنتْه على العالم.

تقول شابة لصديقتها: «أنا فاشلة». تسألها الصديقة، من غير استعجال في التطمين: «ما الذي حدث؟» تروي أنها لم تُقبل في فرصة انتظرتها طويلاً. تصبح الجملة أضيق وأصدق: «لم أُقبل، وأنا محبطة وخائفة من التأخر». لم يتغير القرار الذي وصلها، لكن الفرق بين الجملتين يفتح مجالاً للتفكير. الفشل الشامل حكم على الإنسان، أما عدم القبول فواقعة يمكن البحث في أسبابها وحدودها. ربما يحتاج الأمر إلى تعلم، وربما إلى طلب آخر، وربما إلى وقت للحزن قبل اتخاذ أي خطوة.

وقد يكشف الإصغاء عن أشياء مختلفة تحت الاسم نفسه. يقول رجل إنه حزين، ثم يتبين أنه غاضب من حق ضائع. وتقول امرأة إنها قلقة، ثم تجد أن ما يستنزفها حمل مسؤوليات لم تُوزع بعدل. ويقول آخر إنه لا يريد أحداً، ثم يكتشف أنه يريد صحبة لا تطالبه بالشرح. ليس الهدف أن نستبدل أسماء الشعور كأننا نرتب درجاً، بل أن نفهم ما يشير إليه. كلما دق الوصف، قلت حاجتنا إلى الأحكام المطلقة، وزادت قدرتنا على معرفة نوع المساندة التي قد تنفع.

ولا يكفي الإصغاء وحده في كل حال. قد يحتاج الإنسان إلى من يساعده على الفهم، أو إلى مشورة موثوقة، أو إلى دعم مختص إذا صار الألم يعطل حياته أو يشتد عليه. طلب العون ليس تخلياً عن المسؤولية، بل قد يكون من صورها. المهم ألا يتحول الألم إلى سر مغلق يُطلب من صاحبه حلّه وحده، وألا تتحول المساعدة إلى مصنع يطالبه بإنتاج السعادة. الإصغاء الجيد ينتهي إلى مزيد من الوضوح، لا إلى مزيد من التبعية للشعور.

الزمن الذي لا يطيع الموعد

بعد أسابيع من وفاة زوجها، تسمع امرأة سؤالاً يقال بحسن نية: «أما آن لك أن تعودي كما كنت؟» لا تعرف كيف تجيب. عادت إلى بعض أعمالها، وتحدثت وضحكت مرة، واشترت ما يحتاجه البيت. لكنها لم تعد كما كانت، ولا تعرف إن كان التعبير نفسه صالحاً. ثمة مكان في يومها تغير، وثمة شخص كانت تقيس بحضوره أشياء كثيرة لم يعد موجوداً. يريد السائل أن يطمئن إلى نهاية واضحة، بينما هي تتعلم العيش في ترتيب جديد لا يحمل تاريخ اكتمال.

يتعامل خطاب التحول أحياناً مع الألم كأنه مشروع له جدول: اعتراف، تعلم، تجاوز، انطلاقة. وقد يفيد بعض التنظيم في مواجهة شأن عملي، لكن المشاعر لا تستجيب دائماً بهذا التسلسل. قد يخف الحزن، ثم يعود مع مناسبة أو رائحة أو كلمة. وقد يمر يوم هادئ، ثم يصبح اليوم التالي أثقل من غير سبب يستطيع الإنسان صياغته. لا يلزم من هذا أن كل تقدم كان وهماً، ولا أن صاحبه عاد إلى نقطة الصفر. ليس السير في الحياة خطاً مرسوماً على شاشة.

حين نفرض موعداً للتعافي، قد ندفع الإنسان إلى إخفاء ما تأخر في داخله. ويصبح النجاح في نظره أن يتحدث عن التجربة بصيغة الماضي، حتى لو كانت لا تزال حاضرة. ينشأ عندئذ فرق بين الزمن الاجتماعي والزمن الشخصي: المجتمع يريد خبراً مختصراً يفيد بأنه استعاد توازنه، وهو يحتاج إلى أيام لا يعرف فيها ما الذي استعاد وما الذي تغير نهائياً. وقد يزيد هذا الفرق وحدته، لأنه لا يريد أن يبدو عاجزاً عن إغلاق موضوع أغلقه الآخرون.

احترام الزمن لا يعني انتظاراً بلا مراجعة، ولا التسليم لكل انسحاب. يمكن أن نسأل: هل يساعدني ما أفعله على العيش، أم يزيد ضيقي؟ هل أحتاج إلى عون آخر؟ هل تركت واجبات يمكن أن أعود إلى بعضها؟ لكن هذه الأسئلة تختلف عن الأمر القاسي: انتهِ الآن. الرحمة لا تلغي الفعل، إنما تمنع تحويله إلى امتحان سرعة. بعض التحولات تتطلب أن نعتاد حقيقة جديدة، لا أن نمحو القديمة. ومن حق القلب أن يتعلم ذلك من غير أن يُوبخ على بطء تعلمه.

الصبر ليس وجهاً بلا دموع

في القراءة الأخلاقية للإيمان، يضيق معنى الصبر حين يُختزل في كتمان الأثر. كأن الصابر لا يتوجع، ولا تضعف ركبتاه، ولا يحتاج إلى سند، وكأن الدموع اعتراض على القدر في كل حال. هذا الفهم يحمل الإنسان ما لا يلزم، ويخلط بين الألم وبين ما يختاره المرء في استجابته

له. قد يقع الحزن من غير استئذان، أما الظلم والاعتداء والتفريط المتعمد في الحقوق فمجال آخر ينبغي أن يُنظر فيه بتمييز.
يمكن فهم الصبر بوصفه حفظاً لاتجاه النفس والفعل حين تعصف بهما المشقة. يصبر المرء فلا يجعل من خسارته رخصة لإيذاء من لم يسببها، ولا من خوفه مبرراً لترك كل واجب، ولا من ضيقه حجة على أن الخير فقد قيمته. لكنه قد يبكي وهو يفعل ذلك، وقد يطلب مساعدة، وقد يصرح بأنه لا يطيق وحده ما حُمّل. لا يصبح أرفع مقاماً لمجرد أنه لم يخبر أحداً، ولا أقل إيماناً لأن صوته انكسر حين دعا.
ثمة أم ترعى ابناً يحتاج إلى عناية طويلة. تحبه، وتقوم بحقه، ثم تشعر في ليلة ما أنها تريد ساعات لا يطلب فيها أحد منها شيئاً. إن حوكمت على هذا الشعور وحده، فقد يختلط عليها التعب بالذنب، وتخجل من طلب المعونة. أما إذا أدركت أن الصبر لا يلزمها بادعاء طاقة لا تنفد، أمكنها أن تبحث عن من يشاركها الحمل. قد يكون توزيع العبء أقدر على حفظ البر والرعاية من الاستمرار في بطولة صامتة تنتهي إلى قسوة لا تريدها.
الصبر ليس استعراضاً للقوة أمام الناس، ولا عقداً يضمن لصاحبه نهاية يختارها. هو فضيلة في الطريق، لا سيطرة على الطريق. وفيه سعة للافتقار إلى الله، وللأخذ بالأسباب، وللسؤال الذي يطلب فهماً ولا يتخذ من الحيرة حكماً على عدل الخالق. حين نفهمه كذلك، لا نستخدمه لإسكات المتألم، بل لتثبيت حقه في أن يظل إنساناً مسؤولاً مع ألمه. ولا تكون النصيحة بالصبر إغلاقاً للمجلس، بل بداية لمساندة لا تكتفي بالكلمة.

الرضا لا يوقع تنازلاً عن الحقوق

قد يُساء استعمال معنى الرضا حتى يصبح مطالبة للمظلوم بأن يوافق على ظلمه. يُقال لمن سُلب حقه: ارض بما قسم الله، ثم يُترك المتسبب في الأذى من غير سؤال. هنا تختلط أحوال ينبغي الفصل بينها: التسليم بأن ما وقع قد وقع بعلم الله وقدره، والحكم الأخلاقي على أفعال البشر، والسعي المشروع إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه. لا يلزم من الأول تبرئة الثاني، ولا تعطيل الثالث. ما وقع في العالم لا يصبح، بمجرد وقوعه، فعلاً يجوز للناس أن يكرروه.
يُفصل عامل من عمله بطريقة مهينة، فتقال له كلمات عن الرضا. يمكن أن يتقبل أنه لا يستطيع إعادة الأمس، وأن يمنع المرارة من ابتلاع أيامه كلها، وفي الوقت نفسه يطالب بمستحقاته ويبحث في حقه النظامي. ليس بين الأمرين تناقض ضروري. كما تستطيع امرأة

أن تستعين بالله على أذى أصابها، وأن تبحث عن حماية من تكراره. لا يقتضي الإيمان بالقدر أن يضع الإنسان نفسه في يد المؤذي من جديد، ولا أن يمنحه تفسيراً دينياً يخفف مسؤوليته. والرضا، في معناه المتزن، لا يشترط أن يرى الإنسان المصيبة محبوبة لذاتها. يمكن أن يكره المرض ويرجو العافية، وأن يحزن للفقد ويثق بحكمة الله، وأن يتمنى تغير الحال من غير أن يجعل ألمه خصومة مع ربه. ليست كل نفس قادرة على صياغة هذا التوازن في كلمات، وقد تعيشه في أفعالها البسيطة: صلاة تؤديها مع تعبها، وأمانة تحفظها، ودعاء تعود إليه بعد لحظة عجز. لا ينبغي أن نطلب منها بياناً بليغاً كي نعترف بصدق صلتها بالله.

أما تحويل الرضا إلى ابتسامة مفروضة، فيضر بالمعنى الذي يريد تعظيمه. يجعل التدين هيئة اجتماعية، ويستبدل بالطمأنينة الداخلية نجاحاً في إخفاء الانفعال. وقد يدفع الإنسان إلى مراقبة دموعه أكثر من مراقبة عدله ورحمته. القراءة الأخلاقية الأوسع تسأل عما يحفظه المرء من حق، وعما يمنعه من أذى، وكيف يسعى في الممكن، لا عن مقدار الضوء على وجهه. الرضا ليس توقيعاً على براءة العالم، بل صلة بالله تعين على العيش فيه من غير عبودية لكل ما يفعله الناس.

الامتنان الذي يتسع للنقص

على مائدة بسيطة، يقول رجل إنه ممتن لما رزقه الله، ثم يتحدث عن دين يثقله. يرد عليه أحدهم: «إذن أنت لست ممتناً حقاً». في الجواب افتراض أن الامتنان شعور صاف لا يدخل عليه شيء، وأن ذكر الحاجة يسحب الاعتراف بالنعمة. لكن الحياة لا تُعطى للإنسان في لون واحد. قد يفرح بسلامة أطفاله ويخاف من عجزه عن نفقتهم، وقد يشكر على عمله ويطلب عملاً أقل إيذاء، وقد يحب بيته ويحتاج إلى مساحة من الهدوء داخله.

الامتنان الصادق يرى الموجود، لكنه لا يختلق غير الموجود. يعترف بطعام على المائدة، ولا يدعي أن كل الجوع انتهى. يرى يد صديق امتدت، ولا يزعم أن الخذلان لم يقع. بهذا يكون توسيعاً للرؤية، لا استبدالاً لها. أما إذا استُعمل لإلغاء كل شكوى، فقد يتحول إلى ديون عاطفية لا تنتهي: لأنك نلت خيراً مرة، لا يحق لك أن تتألم أبداً، ولأن شخصاً أحسن إليك، لا يجوز أن تعترض على ما يفعله الآن. هنا يفقد الامتنان حريته، ويصبح أداة لإخضاع صاحبه.

ومن الاعتراضات التي تبدو معقولة أن التركيز على النقص قد يحجب النعم فعلاً. وهذا صحيح في بعض الأحوال؛ قد يستغرق الإنسان في أمر غائب حتى ينسى ما حوله. لكن

علاجه ليس بإنكار الغائب، وإنما بإعادة النسب إلى مواضعها. يمكن أن نسأل عن الخير الموجود وعن الوجع الموجود معاً. لا يحتاج أحدهما إلى قتل الآخر. وقد تفتح رؤية النعمة طاقة للتعامل مع المشقة، بينما يجعل فرضها على

ولعلّ أشدّ ما تفعله السعادة حين تتحوّل إلى واجب اجتماعي أنها تغيّر موقع الحزن من النفس: لا يعود تجربةً تُعاش، بل مخالفةً ينبغي إخفاؤها. عندئذٍ يضطرّ الإنسان إلى أداء عملين مرهقين في وقت واحد: أن يحمل ألمه، وأن يحرس الآخرين من رؤيته. ولا يُطالب بتجاوز محنته فحسب، بل بتقديم نسخة مهذّبة منها، لا تعكّر جلسة العائلة، ولا تُبطئ اجتماع العمل، ولا تفسد على المتابعين صفاء شاشتهم.

في الأسرة، قد يبدأ الإنكار بعبارة حانية تقال على عجل: «لا تفكّر في الأمر، انظر إلى ما عندك». ليست المشكلة في تذكير المرء بالنعم، بل في استعمال النعمة لإبطال حقّه في التألّم، كأن الامتنان لا يصحّ إلا إذا خلا القلب من الوجع. وهكذا يتعلّم الابن أن يزن كلامه قبل أن يبوح، وتتعلم الأم أن تخفي إنهاكها كيلا تُتّهم بالجحود. ويضيق البيت، على سعته، عن مشاعر أهله، لأنه لا يستقبلها إلا بعد أن تُبدّل ثيابها وتظهر في هيئة مقبولة.

عاد رجل إلى عمله بعد وفاة أمّه، فاستقبله مديره بعبارة مواساة، ثم دعاه في الاجتماع نفسه إلى استعادة «طاقته الإيجابية». وفي المساء، حين نشر سطراً يذكر فيه اشتياقه إليها، جاءه من ينصحه بألّا يستسلم للحزن. لم يكن يطلب إعفاءً دائماً من الحياة، ولا يريد أن يجعل الناس شهوداً على كل دمعة؛ كان يحتاج فقط إلى ألّا يُعامَل فقده بوصفه خللاً في الانضباط. لكن الأماكن التي انتقل بينها اتفقت، من غير موعد، على استعجال عودته إلى الصورة التي تريحها.

وفي هذا الاستعجال تنكشف وظيفة الإيجابية السامة: إنها تنقل عبء التكيّف كله إلى المتألم، وتُعفي المحيط من مراجعة قسوته. فبدلاً من تخفيف الحمل، يُطلب من حامله تحسين تعبير وجهه. وفي العمل خصوصاً، قد تصبح الابتسامة جزءاً غير مكتوب من العقد، ويُحسب الاعتراف بالتعب نقصاً في الولاء. أما الفضاء الرقمي فيمنح هذا المنطق سوقاً واسعة؛ تُباع فيه وصفات الخفّة، وتُعرض النجاة كأنها مهارة فردية، ويُحذف من الصورة ما احتاجته من وقت وعون وتعثر.

ليس البديل تمجيد الأسى، ولا الإقامة فيه كأنه دليل عمق، وإنما ردّ المشاعر إلى صدقها وحدودها الإنسانية. فالإيمان لا يشترط جفاف العين، والرضا بالقدر لا يجعل الفقد هيّناً، وحسن الظن بالله لا يلزم صاحبه أن يتظاهر بأنه لا يتوجع. ثمة فرق بين كلمة تفتح للمنكسر

نافذة، وكلمة تدفعه إلى خارج المجلس. والأمل الذي يستحق اسمه يستطيع أن يجلس إلى جوار الحزن، وأن يمنحه وقتاً، ثم يعينه على النهوض من غير أن يعيّره بما أثقل خطاه.

الحزن الذي لا يُخاصم الرجاء

ليس من العدل أن يُطالَب القلب بإقامة الدليل على إيمانه من خلال ابتسامة دائمة. فللروح أحوال لا تختصرها ملامح الوجه، ولليقين جذور قد تزداد رسوخاً فيما ترتجف الأغصان. وقد يحزن الإنسان لأنه أحبّ بصدق، أو أدرك فداحة ظلم، أو عرف قيمة ما فقد؛ فلا يكون حزنه خللاً ينبغي محوه، بل شهادة على أن شيئاً عزيزاً لم يصبح عنده قابلاً للاستبدال. والحزن النبيل ليس تقديساً للألم، ولا ادعاءً بأن الموجوع أرفع منزلة من المعافى؛ إنما هو حزن يحفظ للإنسان صلته بالحق، فلا يتخذ من مصيبته ترخيصاً للقسوة، ولا يجعل انكساره حجة لإهانة نفسه. نبله في الوجهة التي يصونها، لا في شدة الوجع ولا في طول الإقامة فيه. ومن حق صاحبه أن يطلب التخفيف، وأن يستعين بمن يثق به، وأن يفرح حين يجد للفرح منفذاً؛ إذ ليست الأمانة للراحلين أن نهجر الحياة بعدهم.

تجلس امرأة بعد وفاة زوجها لترتّب أوراق البيت. تتوقف عند خطّه على ظرف قديم، فتبكي، ثم تمسح عينيها وتعود إلى حساب نفقة أبنائها. لا تحتاج هذه اللحظة إلى من يأمرها بأن تنظر إلى الجانب المشرق؛ فهي ترى واجبها بالفعل، وتنهض به، ولكنها لا تستطيع أن تؤديه بقلب لم يُصب. بكاؤها لا ينقض صبرها، وقيامها بما يلزم لا يعني أن حزنها قد انقضى. إنهما يجتمعان في يوم واحد، وربما في حركة يد واحدة.

هنا يتبيّن الفرق بين الصبر وتخدير الشعور: الصبر احتمال صادق، يحاول فيه المرء أن يمنع ألمه من سوقه إلى الظلم واليأس، لا أن يمنع الألم من بلوغ قلبه. وفي قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ متّسع إيماني لا يحتاج إلى تكلّف؛ فالشكوى إلى الله باب افتقار، وليست خروجاً من الثقة به.

والرجاء ليس وعداً نمنحه لأنفسنا بأن كل خسارة ستُعوَّض بالصورة التي نختارها، بل ثقة بأن رحمة الله أوسع من معرفتنا بمآلات الأشياء. وهو يترك لنا أن نسعى من غير ضمان دنيوي، وأن نطرق الأبواب من غير أن نعبد نتائجها.

أما الرضا فلا يقتضي تسمية المرارة حلاوة، ولا السكوت عن ظلم يمكن دفعه؛ إنه ألّا نجعل عجزنا عن فهم كل ما جرى حكماً على حكمة الله وعدله. قد يتأخر عن اللسان، وينمو ببطء في القلب. وليس لأحد أن يستعجله في غيره طلباً لمشهد مطمئن؛ فالرفق بالمحزون أقرب إلى المعنى الذي ندعوه إليه من محاصرته بواجبات شعورية يعجز عن أدائها.

للألم حقّ الكلام، لا حقّ السيادة

يمكن أن نصغي إلى الألم من غير أن نسلّمه مفاتيح البيت. فالإصغاء اعتراف بأن شيئاً في الداخل يحتاج إلى الفهم، أما عبادته فتبدأ حين نجعله المرجع الوحيد لمعرفة أنفسنا والعالم، فنردّ كل فرح إلى سذاجة، وكل تعافٍ إلى خيانة، وكل يد تمتد إلينا إلى جهل بما عانيناه. وبين إسكات الوجع ونتويجه حاكماً، تنفتح مساحة أصعب: أن نسمعه بصدق، ثم نناقش أحكامه. فالألم شاهد، لكنه ليس قاضياً معصوماً. قد يدلّنا على حقّ أُهدر، أو علاقة استنزفتنا، أو جهد تجاوز طاقتنا؛ وقد يخلط، تحت وطأة الخسارة، بين ما حدث مرة وما سيحدث دائماً. من حقه أن يقول: لقد خفتُ. وليس من الحكمة أن نتركه يقرّر: إذن لا أمان في الوجود. هنا يعمل الوعي، لا بمخاصمة الشعور، بل بمنعه من التحول إلى عقيدة مغلقة.

تجلس امرأة بعد فقد أمها أمام خزانة لم تجرؤ على فتحها منذ شهور. تجد في أحد الأدراج ورقة صغيرة كُتبت عليها حاجات المنزل، فتضحك من ملاحظة عابرة بخط أمها، ثم تبكي. لا تحتاج في تلك اللحظة إلى من يأمرها بالقوة، ولا إلى من يوحي لها بأن ضحكتها انتقاص من الوفاء. تحتاج إلى فسحة يتجاور فيها الحزن والامتنان؛ أن تبقى المحبة حية من غير أن يصبح استمرار الحياة تهمة. وحين تغلق الخزانة، لا تكون قد أغلقت الفقد، لكنها ربما استطاعت أن تعود إلى يومها حاملةً منه ما تحتمل.

الإيمان يوسّع هذه الفسحة؛ فالرضا بالقدر لا يوجب على الإنسان أن يستحسن مرارة الفقد، والصبر لا يحوّل القلب إلى حجر. يستطيع المرء أن يشكو إلى الله وهو مؤمن بحكمته، وأن يطلب العون وهو حافظ لكرامته. وليس عليه أن يستخرج من كل مصيبة درساً فورياً، كأن البلاء امتحان بلاغة ينبغي أن يجيب عنه بعبارة مطمئنة أمام الآخرين.

وتجارة الإيجابية تضيق بهذا الإيقاع الإنساني؛ إنها تستعجل النتيجة، وتريد من المجروح شهادة نجاح قبل أن يتبيّن موضع جرحه. غير أن مقاومة هذا الاستعجال لا تبرّر الإقامة الدائمة في تعريف المجروح. نحن أوسع مما أصابنا، وإن احتجنا زمناً لنستعيد الإحساس بهذه السعة. وقد يكون أول العمل الصالح تجاه النفس أن نؤدي واجباً صغيراً، أو نقبل صحبة أمينة، من غير ادعاء أن الحزن انتهى.

ومن هنا تستقيم المقارنة: ليست المسألة اختياراً بين وجه مبتسم ووجه حزين، بل بين طمأنينة تفسح للحقيقة مكاناً، وسعادة مصنوعة تشترط إخفاءها. الأولى تعين الإنسان على حمل حياته؛ والثانية تلزمه، فوق حملها، بإتقان عرضها.

حين يصير الثناء قفلاً على الفم

وضعت مريم فناجين القهوة أمام أخواتها، ثم جلست على طرف المقعد كأنها تستأذن الأثاث في شيء من الراحة. منذ أشهر وهي تتنقل بين عملها وبيت أمها المريضة، تحفظ مواعيد الدواء، وتجيب عن اتصالات الأقارب، وتؤجل شؤونها الصغيرة التي لا تبدو لأحد جديرة بالذكر. قالت، بعد تردد: «لم أعد أستطيع متابعة كل هذا وحدي». وقبل أن تتم عبارتها، ابتسمت أختها الكبرى: «لكننا نعرفك قوية، وأمي لا ترتاح إلا معك». وأضافت أخرى: «احتسبي أجرك، أنت دائماً صاحبة القلب الكبير». امتلأت الغرفة بالكلمات الطيبة، وبقي طلبها الوحيد بلا جواب.

ابتسمت مريم بدورها. لم تشأ أن تجرح صورة المرأة القوية التي أحبوها، ولا أن تبدو كأنها تضيق بأمها أو تستكثر عليها الخدمة. عادت إلى المطبخ تحمل الفناجين الفارغة، وشعرت بخجل مبهم من الجملة التي قالتها. لم يوبخها أحد، ولم يمنعها أحد من الكلام صراحة؛ لكن المديح أدى المهمة بأدب بالغ. وفي المساء اعتذرت في رسالة قصيرة عن «انفعالها»، مع أنها لم ترفع صوتها. وحين قرأت أخواتها الرسالة، اطمأنن إلى أن الأمر انتهى، بينما كانت هي تبدأ تعلّم طريقة جديدة لإخفاء التعب.

ليست كل مجاملة ستاراً للتنصل، ولا كل دعوة إلى الصبر إسكاتاً. للكلمة الحانية أثر حقيقي، وقد يستند الإنسان إلى تقدير صادق فيواصل ما اختاره بمحبة. غير أن المجاملة تتغير طبيعتها حين تأتي مكان الاستجابة، وحين يُستخدم وصف الإنسان بالفضيلة لإبقائه في وضع يؤذيه. هنا لا يعود الثناء هدية خالصة، يصير شرطاً غير معلن: سنظل نراك كريماً ما دمت لا تطلب نصيبك، وقوياً ما دمت لا تكشف حاجتك، وصابراً ما دمت لا تضع لتعبك اسماً مسموعاً. تعمل هذه اللغة على موضع دقيق في النفس: حاجتنا إلى أن نظل محبوبين في أعين من نحب. فالإنسان لا يدافع عن راحته وحدها، يدافع أيضاً عن صورته الأخلاقية. وإذا ارتبطت مكانته بكونه الذي يحتمل دائماً، بدا الاعتراف بالعجز تهديداً لتلك المكانة. وقد يبدأ بمراقبة عباراته قبل أن يسمعها الآخرون، فيحذف منها ما قد يُفهم شكوى، ثم يعتاد الحذف حتى يلتبس عليه الفرق بين الرضا وبين العجز عن الاعتراض. يصير رقيب الجماعة ساكناً في صوته، ويحتاج إلى شجاعة مضاعفة لكي يقول عبارة بسيطة: أريد من يساعدني.

والمفارقة أن هذا اللون من الإسكات يستطيع أن يرتدي هيئة المحبة. فالقريب الذي يقول: «لا نعرف ماذا نفعل من دونك»، قد يقصد الامتنان حقاً، لكنه قد يعلن، من حيث لا ينتبه، إعفاء نفسه من التعلّم والمشاركة. والمدير الذي يصف موظفه بأنه «عمود المكان» قد يمنحه اعترافاً يحتاج إليه، ثم يترك على كتفيه أعمال الغائبين. ليست النيات وحدها ميزان

العلاقة؛ ثمة سؤال عن النتيجة أيضاً: هل زاد هذا الثناء قدرة صاحبه على الاختيار، أم جعل رفضه أشد كلفة؟ وهل أعقبه تقاسم للمسؤولية، أم كان وسيلة أنيقة لتثبيتها في موضعها؟ اجتماعياً، تُوزَّع أعباء كثيرة بهذه الطريقة، من غير قرار معلن. يقع العبء على الأكثر استجابة، ثم تُبنى حول استجابته حكاية أخلاقية تجعل استمرارها واجباً. المرأة التي تجيد الرعاية تُترك لها الرعاية كلها، والابن الأقل احتجاجاً يُعهد إليه بما لا يريد الآخرون احتماله، والصديق الحسن الإصغاء يُفترض أنه لا يحتاج إلى من يسمعه. ومع الزمن، يُعامَل استعداد الإنسان للعطاء كأنه مورد عام لا يملك إغلاقه. وما كان فضلاً في البداية يغدو وظيفة دائمة، ثم يُعدّ التراجع عنها تغيراً مذموماً في الخلق.

لهذا ينبغي التمييز بين فضيلة الصبر وبين المنفعة التي يجنيها الآخرون من صمت الصابر. الصبر منزلة أخلاقية وروحية لا يملك أحد أن يحتكر تفسيرها لمصلحته. وقد يصبر المرء وهو يطلب الإنصاف، ويحتسب وهو يراجع قسمة الأعباء، ويحفظ الود وهو يرفض ما يفوق طاقته. والشكوى ليست معنى واحداً: منها ما يستنزف صاحبه في الدوران، ومنها ما يكشف ظلماً قابلاً للإصلاح، ومنها استغاثة لا يجوز استقبالها بموعظة عابرة. وقد قصّ القرآن شكوى يعقوب إلى الله، فلم يجعل الحزن نقيضاً للإيمان، ولا الإفصاح عنه خروجاً من مقام الصبر. إن تحويل الصبر إلى صمت يخلط بين احتمال ما لا نملك تغييره وبين السكوت عما نملك إصلاحه معاً. كما ينقل النقاش من عدالة الوضع إلى أخلاق المتألم: بدلاً من السؤال عن سبب تراكم الحمل، ننشغل بمدى جمال احتماله. وهنا يقع اختلال فلسفي عميق؛ إذ يُطلب من الشخص أن يثبت فضيلته بتحمل آثار تقصير غيره، بينما يظل ذلك التقصير خارج المحاكمة. يصبح التعب امتحاناً لصاحب التعب وحده، كأن الذين يحيطون به لا امتحان لهم في النصرة والعدل وحسن الإصغاء.

وقد يعترض معترض: ألسنا بحاجة إلى التشجيع؟ وإذا فحصنا كل كلمة طيبة بهذه الريبة، أفلا نفسد عفوية العلاقات، ونحوّل كل تضحية إلى حساب، وكل شكوى إلى حق لا يُناقش؟ ثم إن الحياة لا تستقيم إذا أعلن كل إنسان تعبه عند أول مشقة، ولا تنمو النفوس بغير احتمال. وهذا اعتراض يستحق الإصغاء؛ لأن العلاقات التي تُختزل في المقايضة تفقد شيئاً من دفئها، ولأن بعض المجاملات ليست سوى محاولات متواضعة لمواساة لا يحسن أصحابها التعبير عنها.

لكن الجواب ليس في منع الثناء، بل في ألا يُستعمل لإلغاء ما قيل. يمكن أن نقول لمريم: «نعرف مقدار محبتك لأمنا، ونسمع أنك تعبت؛ فلنقسم الأيام بيننا». بهذه الإضافة الصغيرة يُصان التقدير من التحول إلى قيد. ويمكن أن نشجع إنساناً ثم نسأله عما يحتاج إليه، وأن

نذكره بالأجر من غير أن نُسقط واجبنا نحوه. ليس المطلوب تصديق كل تفسير يقدمه المتألم، وإنما الاعتراف بأن ألمه يستحق الفهم قبل الحكم، وأن طلب المشاركة لا يساوي التنصل من المسؤولية.

وقد يحتاج من اعتاد الصمت إلى وقت ليتعلم الشكوى من غير اعتذار عن وجوده. ليس سهلاً أن يتخلى عن امتياز «الذي لا يتعب»، فقد نال به محبة حقيقية، ولو امتزجت بكلفة خفية. وليس سهلاً على أسرته أن تسمع صوته الجديد من غير أن تتهمه بالجفاء. لذلك يبدأ الإصلاح أحياناً من تفاصيل قليلة: سؤال لا تُلقَّن إجابته، ومساعدة لا تنتظر انبهاراً، وفسحة يستطيع فيها المرء أن يقول إنه ضاق، من دون أن يُطالب فوراً بإثبات امتنانه وإيمانه وحسن نيته.

لو عادت مريم إلى تلك الجلسة، فلعلها لم تكن تحتاج إلى كلمات أجمل. ربما كانت تحتاج إلى أخت تضع فنجانها جانباً، وتفتح دفتر المواعيد، وتسألها: «أي يوم تأخذينه لنفسك؟». عندئذ كان يمكن للصبر أن يستعيد حريته، لا لأنه انتهى، بل لأن أحداً كفّ عن الوقوف على بابه حارساً. وربما بقي في صدرها كلام كثير لم تتعلم قوله بعد؛ كلام لا يحتاج، لكي يخرج، إلا إلى وجه لا يسارع إلى مكافأتها على السكوت.

لغةٌ تتّسع للغيمة ولا تُطفئ النافذة

في آخر الزيارة، حين نهض الضيوف وبدأت أكواب الشاي تبرد، بقيت امرأة عند الباب تسأل صاحبة البيت: «كيف أنتِ، حقاً؟». كانت صاحبة البيت قد فقدت عملها قبل أسابيع، واعتادت أن تجيب بابتسامة سريعة: «الحمد لله، كل شيء بخير». لكنها هذه المرة سكتت قليلاً، ثم قالت: «الحمد لله، لكنني خائفة، ولا أعرف كيف سأدبّر الشهر المقبل». لم تسارع الزائرة إلى تعداد النعم، ولم تخبرها أن غيرها أشد بؤساً، ولم تعدها بأن الغد سيكون جميلاً. قالت: «أفهم أن الأمر ثقيل. إن أحببتِ، نجلس غداً وننظر فيما يمكن فعله». عندئذ بكت المرأة، لا لأن العبارة زادت حزنها، بل لأنها لم تعد مضطرة إلى حمله وحمل إنكاره معاً. لم يتغيّر واقع البيت في تلك اللحظة، ولم يظهر عمل جديد خلف الباب. الذي تغيّر هو مقدار الحقيقة المسموح لها بالدخول. كانت كلمة «لكنني» جسراً بين الإيمان والتجربة، لا خصومة بينهما؛ فالحمد لا يوجب ادعاء العافية، والخوف لا يبطل الثقة بالله. وقد يكون الإنسان راضياً بحدود علمه، موجوعاً بما أصابه، راجياً رحمة ربّه، من غير أن تتقاتل هذه الأحوال في داخله. إنما تضيق حين نحبسها في عبارات لا تعترف إلا بحالة واحدة، كأن القلب لا يستطيع أن يحمل شكراً ودمعة في الساعة نفسها.

تبدأ صناعة اللغة التي تسمح بالحزن من التخلي عن محاكمة الشعور قبل فهمه. ففي كلامنا اليومي عبارات تبدو مواساة، لكنها تتضمن أمراً مستتراً: «لا تكبّر الموضوع»، «انسَ ما حدث»، «ابتسم من أجلنا». قد يقولها محبّ يريد التخفيف، غير أن أثرها قد يكون إبلاغ المتألم بأن حضوره مقبول بشرط أن يخفف عن الآخرين مشقة رؤيته. وهكذا يصبح الحزن عملاً إضافياً: يتألم المرء، ثم يراقب وجهه، وينتقي كلماته، ويعتذر عن صمته، حتى لا يُتَّهم بأنه يفسد المجلس أو يرفض الحياة.

ولا يعني ذلك أن نمنح كل شعور سلطة مطلقة على تفسير العالم. الاعتراف بالألم غير التسليم بكل حكم يصدر عنه. يمكن أن نقول: «أرى أنك تشعر بأنك وحيد»، من غير أن نقرر: «نعم، لا أحد يحبك». ويمكن أن نعترف بمرارة الإخفاق من غير أن نوافق على أن صاحبه عديم القيمة. هنا تعمل اللغة بوصفها ميزاناً دقيقاً: تصدّق الخبرة الداخلية، وتترك تأويلها قابلاً للمراجعة. فالحزين يحتاج إلى من يسمعه، وقد يحتاج أيضاً إلى من يحمي المسافة بين ما يشعر به الآن وما يصحّ أن يحكم به على حياته كلها.

ومن أكثر ما يعين على حفظ هذه المسافة أن نتعلم الكلام المحدّد. بدل «أنا فاشل» نقول: «أخفقت في هذا المسعى». وبدل «لن يتغيّر شيء» نقول: «لا أرى الآن طريقاً واضحاً». ليست هذه حيلة لتزيين الواقع، بل تصحيحاً لحجم العبارة كي لا تبتلع زمناً لم يقع بعد. كلمة «الآن» تمنع الألم من مصادرة المستقبل، وكلمة «هذا» تمنع حادثة واحدة من الاستيلاء على الهوية. واللغة الصادقة لا تصغّر المصيبة، لكنها تمتنع عن منحها حقوقاً ليست لها: حق تعريف الإنسان، وحق احتكار أيامه المقبلة.

على المستوى الاجتماعي، لا تتوزع حرية الحزن بالتساوي. يُطلب من الأب أن يكون صلباً، ومن الأم أن تواصل الرعاية، ومن الموظف أن يبدو متحمساً، ومن المسنّ أن يكون حكيماً لا يشكو. وكل دور يحمل قاموساً من المسموح والممنوع، حتى يكاد الإنسان يختفي خلف وظيفته في حياة الآخرين. لذلك لا يكفي أن نعلّم الأفراد التعبير؛ ينبغي أن نصنع مجالس تحتمل ما يعبّرون عنه. فما فائدة أن يتعلم الابن قول «أنا متعب» إذا كان الجواب المعتاد اتهامه بالدلال، أو أن تصارح الزوجة بإنهاكها إذا تحولت المصارحة إلى محاكمة لوفائها؟

تصنع هذه المجالس بتعديلات صغيرة ذات أثر عميق: سؤال لا يستعجل الإجابة، وصمت لا يعاقب المتكلم، وامتناع عن تحويل كل اعتراف إلى نصيحة. وقد تكون الجملة الأرحب: «هل تريدني أن أسمع، أم نفكر معاً في حل؟». إنها تعيد إلى صاحب الألم بعض الاختيار، بعدما شعر أن أشياء كثيرة تجري عليه بغير اختياره. وحين لا نعرف ما نقول، فإن «لا أجد

كلاماً مناسباً، لكنني معك» أصدق من حكمة جاهزة تُلقى لإغلاق الحديث. فليس واجب القريب أن يكون بليغاً دائماً، يكفي أحياناً ألا يهرب.
أما الرجاء، فلا تحفظه الوعود التي لا نملك الوفاء بها. قولنا «ستعود الأمور كما كانت» قد يخذل من تبدلت حياته تبدلاً لا رجعة فيه. الأصدق أن نبحث عن إمكان لا يشترط محو الخسارة: «قد نجد طريقة للعيش مع هذا النقص»، أو «لن نحل كل شيء اليوم، لكن يمكن أن نبدأ بخطوة». الرجاء هنا ليس تنبؤاً بنتيجة بعينها، بل إبقاء الصلة بين الإنسان وقدرته على الاستجابة. قد لا يملك تغيير ما وقع، لكنه قد يملك طلب العون، أو تأجيل قرار متعجل، أو العناية بيومه حتى يقدر على رؤية أبعد منه.
وللإيمان في هذه اللغة موضع جليل، حين يُقدَّم سكينةً ومرافقةً لا أداة إسكات. يمكن أن ندعو للموجوع ونساعده على حمل أسبابه، وأن نذكّره بسعة الرحمة من غير أن ندّعي معرفة الحكمة التفصيلية مما نزل به. لسنا مطالبين بتفسير كل مصاب نيابة عن الغيب. وقد يكون من الأدب مع الله ومع الإنسان أن نقول: «لا أعلم لماذا حدث هذا، وأسأل الله أن يعينك، وسأفعل ما أستطيع». فالإقرار بحدود المعرفة لا يضعف اليقين، بل ينزّهه عن التفسيرات المتعجلة التي قد تزيد المنكوب وحشة.
وقد يعترض معترض: أليست إتاحة الحزن في الكلام تشجيعاً على الاستغراق فيه؟ ألا يحتاج الناس إلى من يدفعهم خارج دوائر الشكوى، بدلاً من توفير مقاعد مريحة داخلها؟ للاعتراض وجاهته حين يتحول الإصغاء إلى ترديد لا ينتهي للحكاية نفسها، وحين تصبح المعاناة بطاقة إعفاء من المسؤولية. لكن البديل عن هذا ليس المنع، بل مصاحبة الاعتراف بسؤال الحركة: ما الذي تحتاجه اليوم؟ وما الذي تستطيع فعله، ولو قليلاً؟ الإصغاء لا يقتضي تعطيل الإرادة، كما أن الحث على الفعل لا يقتضي إهانة الضعف.
ثم إن فتح باب الكلام لا يعني إلغاء الحدود. يستطيع المستمع أن يقول برفق: «أريد أن أصغي إليك، لكنني متعب الآن، هل نكمل مساء؟». فاللغة الرحيمة تحمي الطرفين، ولا تجعل أحدهما بئراً لا قاع لها، والآخر مطالباً بإفراغها وحده. وقد يستدعي ثقل المعاناة واتساع أثرها عوناً إضافياً من أهل الخبرة، من غير وصمة ولا تهويل. ليست القرابة مطالبة بأن تكفي لكل شيء، وليست الاستعانة بغيرها خيانة للمحبة.
ولعلنا نتعلم الرجاء حين نكفّ عن مطالبة كل مساء بأن يثبت جمال الحياة كله، ونكتفي أحياناً بأن نترك، قرب من يحزن، مكاناً يتسع لصباح لم يصل بعد.

الفصل الثاني: صناعة المقارنات الملعونة

لا تكتفي الشاشة بأن تعرض لك ما عند الآخرين؛ إنها تعيد ترتيب المسافات بينك وبينهم، حتى يبدو البعيد جاراً ينافسك، والاستثناء قاعدةً تأخرتَ عن بلوغها. في المرآة العادية ترى وجهك من زاوية محدودة وتعرف أنها محدودة، أما هذه المرآة فتخفي إطارها، وتوهمك أن ما يقع داخلها هو العالم كله. وما يغيب عنها ليس قليلاً: كلفة الصورة، وزمن الإعداد، وما سبق اللحظة وما تلاها، والأبواب التي أُغلقت قبل أن تُفتح نافذة التصوير.

يجلس رجل عند آخر الليل، وقد فرغ من حساب نفقات بيته، فيفتح هاتفه لدقائق يستريح فيها. تظهر له مائدة أنيقة، وخلفها نافذة على بحر، وتحتها عبارة عن أن الحياة تمنح من يجرؤ. لا يعرف أن المشهد إعلان، ولا أن الإقامة هدية مشروطة بالنشر، ولا أن العبارة صيغت لتصلح لكل شيء ولا تفسر شيئاً. لكنه يعرف، فجأة، أن غرفته ضيقة. لم تتغير الغرفة؛ الذي تغير هو المقياس الذي دخل إليها خلسة. وحين يرفع عينيه عن الهاتف، لا يرى ستر بيته أولاً، بل يرى ما ينقصه ليشبه بيتاً لا يعرف حقيقته.

هنا يعمل اقتصاد الانتباه: لا يبيعك الأشياء وحدها، بل يوسّع فيك المساحة التي تشعر أنها فارغة. يكفيه أن تتوقف عند صورة، أو تعود إليها، أو تتفحص وجوه أصحابها، ليتعلم أيُّ باب يعيدك منه. وليس محتاجاً إلى أن يكرهك أحد؛ قد يكفي نظام يكافئ ما يستبقي النظر، ولو كان ثمنه أن يخرج الناظر أقل رضاً عن يومه. ولأن الكفاية لا تستدعي كل هذا التفتيش، ولأن السكينة تستطيع أن تضع الهاتف جانباً، تنال الصور المستفزة للمقارنة فرصاً أكثر للظهور.

ثم تأتي تجارة الإيجابية لتمنح هذا الاضطراب لغةً مهذبة: أنت لا تُستنزف، بل «تستلهم»؛ ولا تُدفع إلى سباق مجهول النهاية، بل «تكتشف إمكاناتك». وفي هذا الخلط يُحمَّل الإنسان مسؤولية كل مسافة تفصله عن صورة، كأن اختلاف الأرزاق والظروف مجرد نقص في الحماسة. وليس الاعتراض على الأمل، فالأمل يعين على السعي؛ وإنما على أملٍ تجاري يشترط عليك أن تحتقر موضع قدميك كي تتحرك.

واسترداد البصر يبدأ من ردّ الصورة إلى حجمها: جزء منتقى من حياة، لا حكماً على حياتك. تستطيع أن ترغب في خير، وتسعى إليه، وتحسن التدبير، من غير أن تجعل رزق غيرك لائحة اتهام لرزقك. فالإيمان بالقدر لا يعطل العمل، لكنه يحفظ للعمل وجهته: أن تعمر ما اؤتمنت عليه، لا أن تقضي عمرك تستأنف حكماً أصدرته شاشة.

ولا تحتاج المقارنة اليوم إلى معرفةٍ بالناس، يكفي أن تمرّ إصبعك على شاشة، حتى تجد نفسك متأخراً عن حيواتٍ لم تدخلها، ومقصّراً أمام إنجازاتٍ لا تعرف كلفتها، وأقلّ حظاً من وجوهٍ لم ترها إلا في اللحظة التي اختارت فيها أن تُرى. هكذا يتحوّل الجزء المعروض إلى حقيقةٍ كاملة في ذهن المتلقي، ثم تُستدعى حياتك بكل أثقالها للمثول أمامه. أنت تعرف ما وراء بابك، ولا تعرف ما وراء الصورة، ومع ذلك تقبل أن تكون المعرفة الناقصة قاضياً على المعرفة الموجعة.

ليست الواجهة كذباً بالضرورة. قد تكون الرحلة جميلة حقاً، والبيت أنيقاً، والنجاح مستحقاً. الخديعة تبدأ حين ننسى أن الصدق الجزئي لا يمنحنا حقّ الحكم الكلي؛ فنافذة مضاءة لا تخبرنا كيف يقضي أهل البيت ليلهم. وليس من الإنصاف، أيضاً، أن نتخيّل لكل نعمة مصيبة خفية كي نحتملها. لا يلزم أن يكون الآخر تعيساً حتى نتصالح مع نصيبنا؛ يلزم فقط ألّا نجعل ما أظهره مقياساً لما غاب عنا وعن غيرنا.

يجلس رجل إلى مائدة مطبخه بعد يوم عمل طويل، يقلّب صور زميلٍ يحتفل بافتتاح مشروع جديد. حوله فواتير، وكوب شاي برد، وصوت طفل يسأله أن يصلح لعبة مكسورة. لا يحسد زميله في البداية؛ لكنه، بعد دقائق، ينظر إلى المائدة كأنها شهادة فشل. لم تتغير أجرته، ولم يزدد دَينه، ولم يفقد محبة ابنه؛ الذي تغيّر هو الميزان الذي عاد به إلى الأشياء. دخلت صورة عابرة إلى المطبخ، فأعادت ترتيب قيمته في عينيه.

وتأتي اللايكات لتمنح هذا الميزان هيئة الحساب الدقيق. أرقام واضحة، لكن دلالتها ملتبسة: أهي محبة، أم مجاملة، أم فضول، أم مكافأة على حسن التوقيت؟ لا نسأل كثيراً؛ نستعير من العدد يقينه، ثم نحمله ما لا يحتمل. ومع تكرار ذلك، قد يصير الفعل ناقصاً عند صاحبه حتى يُنشر، وتصير البهجة قلقة حتى يشهد لها جمهور. كأن التجربة لا تكتمل بوقوعها، بل بتصديق الغرباء عليها.

وهنا تجد تجارة الإيجابية زبونها المستعد: لا تكتفِ بأن تحيا، بل أثبت أنك تحيا جيداً؛ لا تحزن إلا بعد أن تستخرج من حزنك عبارة ملهمة؛ ولا تتعثر إلا في صورة تصلح للإعلان عن نهوضك. أما الإنسان الذي يحتاج إلى وقت وصمت، فيُدفع إلى الدفاع عن بطئه.

ليست النجاة في احتقار المظاهر، بل في ردّها إلى حدودها. للناس حق الفرح بما أُوتوا، ولنا حقّ ألّا نحاكم أرزاقنا بواجهاتهم. والإيمان بالقدر لا يُبطل السعي، لكنه يحرسه من أن يتحوّل إلى سباقٍ غايته أن يرانا الناس سابقين؛ فكم من عملٍ قليل التصفيق، عظيم الأثر، وكم من طمأنينة تبدأ حين نترك شيئاً جميلاً يحدث لنا من غير أن نعرضه.

وللمقارنة حيلة أخبث من إشعارك بالنقص: أن تجعلك تخجل من الاعتراف به. تغار، ثم تُطالب بأن تبدو راضياً، تتألم، ثم يُطلب منك أن تشكر قبل أن تفهم موضع الألم. هكذا تصبح النفس قاعة محكمة، يقف فيها الشعور متهماً، ويتولى اللسان تلاوة عبارات البراءة المحفوظة. وليس كل ما نضمره جديراً بالطاعة، لكنه لا يصير مفهوماً بمجرد إسكات صاحبه.

كان خيّاط في آخر السوق يرى الزبائن يتجاوزون دكانه إلى دكان تلميذه القديم. وفي مساء تسلّم فيه التلميذ جائزة لأفضل مشروع صغير، علّق الخيّاط صورة التكريم على هاتفه، وكبّرها حتى غابت الوجوه وبقيت يد الفتى تحمل الدرع. عرف تلك اليد يوم كانت ترتبك أمام المقص. أحس بوخزة لم يحبها في نفسه؛ لم يتمنَّ للفتى خسارة، لكنه تمنى لو تأخر نجاحه قليلاً، حتى لا يبدو هو متأخراً إلى هذا الحد.

دخل التلميذ عليه يحمل قطعة قماش، وطلب رأيه في قصّتها. كاد الرجل يختبئ وراء حكمة جاهزة عن القناعة، ثم وضع الهاتف مقلوباً وقال: «فرحت لك، وضاق صدري من حالي، ولا أعرف كيف اجتمعا». جلس الفتى، ولم يعظه. نشر القماش بينهما، وأخذ يشرح له كيف غيّر طريقة استقبال الطلبات، وما الذي تعلّمه من شكاوى زبائنه. ولأول مرة منذ رأى الصورة، صار أمام الخيّاط شيء يمكن فعله، لا مجرد منزلة ينبغي أن يبلغها.

تلك المسافة بين الوخزة والفعل هي موضع المسؤولية. فالغيرة قد تكون خبراً عن رغبة مهملة، وقد تنقلب إلى حسد حين نطلب شفاء نقصنا بزوال نعمة غيرنا. والاقتداء ليس اسماً مهذباً للمطاردة؛ إنه أن نأخذ من تجربة الآخر سبباً صالحاً، ثم نرده إلى قدرتنا وظروفنا، من غير أن نستعير عمره كله لنقيس به أعمارنا.

أما الرضا، فلا يقتضي أن نسمّي كل عجز فضيلة، أو نتخلى عن السعي اتقاءً لوجع المنافسة. نرضى بقضاء الله، ونعمل بما أتيح لنا من أسباب؛ وقد يبقى في القلب حزن لا يبطل إيمانه، وسؤال لا يفسد شكره. والشكر أوسع من ابتسامة تؤدى أمام الناس: قد يظهر في صيانة نعمة صغيرة، أو تعلّم حرفة، أو الامتناع عن ظلم من سبقنا.

تجارة الإيجابية لا تصبر على هذا التعقيد؛ تريد من الإنسان صورة نهائية لوجه مطمئن، وتعدّه بأن الامتنان سيجلب إليه مزيداً من المكاسب. لكن النعمة ليست صفقة، والشكر ليس رسماً ندفعه لضمان الزيادة التي نختارها. وقد أغلق الخيّاط دكانه تلك الليلة وفي صدره بقية غيرة، غير أنه كتب على ورقة ثلاثة تغييرات سيجرّبها صباحاً، ثم دعا لتلميذه بالبركة. لم يصبح رجلاً آخر، لكنه لم يترك لوخزته أن تقرر ما تصنعه يداه.

تبدأ استعادة الهوية حين نكفّ عن معاملة أنفسنا بوصفها مشروعاً للاعتذار. لستَ مطالباً بأن تبرّر كل طريق لم تسلكه، ولا أن تقيم محكمة في صدرك كلما سبقك أحد إلى باب.

بعض الأبواب لا يفضي إلى حياتك، ولو ازدحم الواقفون عنده، وبعض التأخر مهلة تعرف فيها ما تريد، لا شهادة نقص يوقّعها العابرون على جبينك. وليس في ذلك دعوة إلى تمجيد العجز؛ فالمرء يسعى ويحاسب تقصيره، لكنه لا يجعل نتيجة السعي حكماً على كرامته، ولا يخلط بين الرضا بقدر الله وإعفاء نفسه من العمل.

أن تستعيد نفسك يعني أن تُستردّ حق السؤال قبل أن تتلقّى قائمة الرغبات الجاهزة: هل أريد هذا حقاً، أم أريد أن يراني الناس وأنا أملكه؟ ماذا يبقى من هذه الأمنية إذا لم يعرف بها أحد؟ عند هذا الحدّ تنكشف المسافة بين حاجة تنبع من حياتك، وحاجة استؤجرت لتؤدي بها دوراً في حياة الآخرين. وقد يكون أشقّ ما في الصدق أن تكتشف أنك أنفقت سنوات لتبلغ مكاناً لا تحبّه، لأن التصفيق كان يصل منه واضحاً.

تأمّل رجلاً يعود مساءً إلى بيته، يحمل خبزاً ودواءً لأمه. يفتح هاتفه قبل أن يضع الكيس، فتتوالى أمامه صور البيوت الأوسع والأسفار الأبعد. خلال دقائق، تتحول عودته الآمنة إلى مشهد باهت، ويبدو له يومه كأنه لم يحدث. لم ينقص من رزقه شيء، لكن مقياسه تبدّل. ليست استعادته لنفسه أن يلعن أصحاب الصور، بل أن يضع الهاتف، ويسأل أمه عن ألمها، ويمنح الفعل الذي بين يديه وزنه الذي سلبته الشاشة. فالبرّ ليس جائزة تعويضية لمن لم ينجحوا في السباق؛ إنه معنى قائم بذاته، لا ينتظر اعتراف جمهور.

ومع ذلك، لا تُسترد الهوية بقرار بطولي واحد. إنها تُبنى في اختيارات صغيرة: ما نسمح له بدخول يومنا، ومن نمنحه سلطة تقييمنا، وأيّ خسارة نقبلها كيلا نخسر ضمائرنا. وقد نحتاج إلى شيء من العزلة، لا احتقاراً للناس، بل حتى نسمع أصواتهم من دون أن يطغى ضجيجهم على صوتنا.

غير أن السوق الذي يبيع المقارنات لا يرضى بسهولة بخروج زبائنه. سيعيد إلينا رغباتنا القديمة في هيئة اقتراح بريء، ثم يكرّر الاقتراح حتى يبدو عرفاً، ويعرض العرف حتى يبدو حقيقة لا يختلف عليها عاقل. وهناك يتغيّر السؤال: لا يعود أيّنا أفضل من الآخر فحسب، بل مَن يجرؤ على ألّا يشبه الجميع؟ ومن هذه العتبة يبدأ القطيع الرقمي: أفراد يظنون أنهم يختارون وحدهم، فيما تضيق أمامهم، يوماً بعد يوم، مساحة الاختيار.

حين تصير النافذة واجهةً للبيع

قبل أن تبرد القهوة، كانت مريم قد حرّكت الفنجان ثلاث مرات، وأبعدت حقيبة أمها عن طرف الطاولة، وطلبت من أخيها أن يؤخّر يده قليلاً. لم تكن تستصغر الجلسة العائلية؛ كانت سعيدة بها حقاً. لكن الصورة احتاجت إلى ترتيب آخر: ضوء النافذة، قطعة الحلوى التي

لم يمسّها أحد، والكتاب المفتوح على صفحة لم تقرأها. خارج الإطار كانت أمها تحسب كلفة الطلبات، وكان أخوها ينتظر اتصالاً بشأن عمل مؤقت. التقطت مريم الصورة وكتبت: «أيام تستحق الامتنان». ثم عادت إلى حديثها، وفي داخلها سؤال صغير لم يكن عن الامتنان: هل رآها الشخص الذي تريد أن يراها؟

لم تكذب الصورة في شيء ظاهر. القهوة موجودة، واللقاء وقع، والفرح لم يكن مختلقاً. ومع ذلك، قالت الصورة أكثر مما حدث؛ أوحت بأن هذه الطاولة عنوان حياة، وأن السكينة صفة مستقرة لصاحبتها، لا زائرة جلست معها ساعة ثم مضت. هنا يبدأ اقتصاد الصورة: لا عند اختراع الواقعة بالضرورة، بل عند تحميل الواقعة المحدودة وعداً واسعاً، وتحويل اللحظة من خبرة نعيشها إلى وثيقة نقدّمها لإثبات موقعنا في العالم.

في هذا الاقتصاد، لا تكون العملة مالاً وحده. ثمة انتباه يُجمع، واعتراف يُستدرج، وهيبة تُراكم، وفرص قد تأتي لأن أحداً اقتنع بما رأى. ولهذا لا يصح اختزال العرض في حب التباهي؛ فقد صار الظهور في بعض البيئات طريقاً إلى الرزق، أو وسيلة لتجنّب التهميش، أو دفاعاً عن مكانة مهددة. الشخص الذي لا يعلن نشاطه قد يُحسب خاملاً، ومن لا يعرض علاقاته قد يُظن وحيداً، ومن يصمت عن نجاحه ربما سبقه من هو أقل كفاءة وأعلى صوتاً.

ليست الرغبة فردية خالصة؛ إنها تتغذى من نظام يكافئ القابل للعرض.

غير أن النظام لا يكتفي بأن ننجح؛ إنه يفضّل نجاحاً يمكن اختصاره في علامة سريعة. سنوات التعلّم لا تظهر كما تظهر الشهادة، والعمل الصبور لا يلمع كصورة المنصة، وإصلاح علاقة متعبة لا يملك بريق رحلة إلى مدينة بعيدة. هكذا يعاد ترتيب قيمة التجارب وفق قابليتها للتصوير. ليست المسألة أن الجميل يصبح مرئياً، بل أن المرئي يغدو، بالتدريج، معيار الجميل والمهم والجدير بأن يُعاش.

ومن هنا تتسلل خسارة أعمق من ضياع الوقت: قد نختار بعض حياتنا بحسب صلاحيتها للعرض. نذهب إلى مكان لأن صورته تسبق لذته، ونحتفل بطريقة لا تشبهنا لأنها مفهومة للجمهور، ونؤجل فرحاً صغيراً حتى تكتمل شروط إخراجه. يصبح المتفرج الغائب شريكاً في القرار، له مقعد على المائدة وإن لم نره. وربما لم يأمرنا أحد بشيء؛ يكفي أننا تعلّمنا، من تكرار المكافأة والفتور، أي نسخة منا تستحق التصفيق.

وللعرض وظيفة نفسية أقل وضوحاً: إنه يمنح الحياة المضطربة حبكة مؤقتة. الإنسان يحتمل التعب أحياناً أكثر مما يحتمل أن يبدو تعبه بلا اتجاه. فإذا نشر لحظة نجاح، أحس أنه انتزع من الفوضى دليلاً على أنه يسير، وأن تأخره ليس سقوطاً، وأن ما دفعه من عمر لم يذهب

كله سدى. بهذا المعنى، قد تكون سيرة الانتصار التي نعرضها محاولة لإقناع أنفسنا قبل إقناع الآخرين. نحن لا نزيّن الماضي فحسب؛ نستعير من صورته قوة لاحتمال الغد.

لكن الدليل الذي نستند إليه قد يتحول إلى تكليف. من اعتاد الناس أن يروه متقدماً سيجد مشقة في إعلان تعثره، ومن بنى حضوره على الوفرة قد يخجل من الاعتذار عن نفقة، ومن قدّم زواجه بوصفه طمأنينة مكتملة قد يتردد في طلب العون حين تضيق به العلاقة. الصورة الناجحة ترفع سقف الدور المطلوب من صاحبها. ثم ينشأ ضرب من الحراسة: يحرس الإنسان الرواية التي منحته الاعتراف، ولو احتاجت إلى اقتطاع أجزاء متزايدة من حقيقته.

وليس الجمهور بريئاً تماماً من هذه الحراسة. نحن نحب الروايات السهلة؛ نريد للناجح أن يواصل نجاحه كي لا يربك تصورنا عن الطريق، وللسعيد أن يظل سعيداً كي تبقى وصفته صالحة للاقتباس. وقد نعاقب التناقض بالسخرية: كيف يشكو من كان يحتفل بالأمس؟ كأن الفرح تعهّد دائم، وكأن صورة واحدة تسقط حق صاحبها في يوم ثقيل. بذلك لا يعود النشر اختياراً شخصياً فقط، بل عقداً ضمنياً تُفرض فيه الاستمرارية على كائن لا تستمر أحواله على وتيرة واحدة.

وثمة تفاوت اجتماعي يختبئ وراء أناقة المشهد. يستطيع بعض الناس شراء ظروف الصورة: وقت الفراغ، والمكان الهادئ، والسفر، والعناية بالمظهر، ومن يتولى عنهم أعباء لا تدخل الإطار. ثم تُعرض النتيجة كأنها ثمرة حسن التدبير وحده. ليست المشكلة في امتلاك هذه النعم، وإنما في محو الشروط التي جعلتها ممكنة. فعندما تختفي البدايات المختلفة، يبدو الوصول امتحاناً أخلاقياً عادلاً: من وصل مجتهد، ومن تأخر مقصّر. وهكذا تؤدي الصورة عملاً اجتماعياً قاسياً من غير أن تنطق باتهام.

فلسفياً، يقع الالتباس حين تتحول الشهادة على الوجود إلى بديل من الوجود. فاللحظة لا تكفينا بما أحدثته فينا؛ نطلب منها أن تثبت أننا محبوبون، ناجحون، جديرون بالاختيار. وهذه مطالب لا تقدر صورة على إشباعها إلا قليلاً، ولذلك تتكرر الحاجة إلى دليل جديد. كل اعتراف سريع يسكّن السؤال ولا يحسمه. وحين يهدأ التفاعل، لا يبدو الصمت فراغاً تقنياً، بل احتمالاً جارحاً: لعلني فقدت قيمتي. لقد ربطنا أمراً واسعاً، هو كرامة الإنسان، بمؤشر ضيق شديد التقلب.

ولا يعارض هذا الفهم إظهار النعمة أو الفرح بها، ولا يجعل الخفاء فضيلة آلية. يستطيع المؤمن أن يشكر الله علناً، وأن يسرّ بما آتاه، من غير أن يجعل النعمة شهادة تفوق على غيره. والرزق لا يكشف وحده منزلة صاحبه عند الله، كما أن العسر ليس حكماً بنقصه. ما يحتاج

إلى مساءلة هو ذلك الانتقال الخفي من «لقد فرحت» إلى «انظروا ما الذي تثبته فرحتي عني»، ومن مشاركة النعمة إلى استخدامها في ترتيب البشر.
قد يعترض معترض: أليس في هذا تشدد على الناس؟ ألسنا نختار للضيوف أجمل ثيابنا، ونحفظ في الألبومات أيام الأعراس لا ساعات الخصام؟ ثم إن الصور قد تحفظ الذاكرة، وتصل البعيد، وتشجع من أوشك على اليأس.
وهذا اعتراض صحيح. ليست كل نافذة واجهة بيع، وليس الانتقاء تزويراً لمجرد أنه انتقاء. الفارق يظهر في طبيعة العلاقة التي ننشئها مع ما نعرضه: هل نشارك لحظة، أم نطالبها بإثبات استحقاقنا؟ هل نحتفظ بحقنا في عيش ما لا يلقى الإعجاب، أم نترك الاستجابة تقرر لنا ما يستحق؟ قد يكون التحرر بسيطاً وشاقاً معاً: أن تظل بعض المسرّات بلا شهود، لا احتقاراً للناس، بل إبقاءً لمساحة لا تعمل فيها محكمة النظرات.
في مساء آخر، قد تترك مريم حقيبة أمها عند طرف الطاولة، لا لتلتقط صورة أكثر صدقاً، بل لأنها نسيت الصورة قليلاً، ومالت تسمع الحكاية التي بدأت أمها ترويها.

حين تستردّ النعمة اسمها من عيون الآخرين

في مساء الجمعة، كانت سلمى تساعد أمها في جمع الأطباق، حين قالت إحدى القريبات وهي تتأمل صور البيت الجديد الذي اشترته أختها ندى: «بعض الناس تعرف كيف ترتّب حياتها». لم تُذكر سلمى، لكن العبارة وجدت طريقها إليها. نظرت إلى يديها المبتلّتين، وتذكرت الشقة التي تؤجل إصلاح نافذتها، والقسط الذي يقتطع من راتبها، ثم شعرت بضيق أنجلها: لماذا لم تفرح لأختها كما ينبغي؟ كانت قد اختارت لها هدية بحب، فكيف صار البيت الجميل، في لحظة، دليلاً تتهم به حياتها؟
وفي صباح الأحد، أعلنت الإدارة ترقية زميلتها هالة. صفقت سلمى، ثم عادت إلى مكتبها وفتحت ملفاً أنجزته قبل أسبوعين. أخذت تراجع صفحاته لا لتطوره، بل لتثبت لنفسها أن الترقية أخطأت عنوانها. وحين سألتها هالة عن رأيها في ترتيب جديد للعمل، أجابت باقتضاب لم تعهده في نفسها. عندئذ انتبهت إلى أن شيئاً واحداً رافقها من مائدة الأسرة إلى المكتب: لم تعد ترى ما حصلت عليه الأخرى إلا بوصفه شيئاً نُزع منها.
ليست الغيرة دائماً رغبة صريحة في زوال نعمة الغير؛ فقد تبدأ خوفاً من أن تصبح حياة المرء بلا شاهد. نرى شخصاً يُحتفى به، فنخشى أن يكون الاحتفاء إعلاناً ضمنياً عن عدم جدارتنا. وبين الواقعة وتأويلها تقع الحيلة: أخت اشترت بيتاً، وزميلة نالت منصباً، لكن النفس تسمع

خبراً آخر: لقد تأخرتِ، لقد نقصتِ، لقد انكشف أمرك. هكذا تتحول المقارنة من ملاحظة فرق محدود إلى حكم شامل على الوجود، وتصبح نعمة الآخر لغة سرية لذمّ الذات.
داخل الأسرة، تشتد هذه الحيلة لأن الاعتراف فيها أقدم من قدرتنا على تفسيره. فالطفل لا يسمع المديح بوصفه وصفاً محايداً دائماً؛ قد يسمعه توزيعاً للمحبة. وحين تتكرر عبارات من قبيل «انظر إلى أخيك»، يتعلم أن التفوق تذكرة إلى القرب، وأن الخطأ قد يكلّفه مكانه في القلب. يكبر الأبناء، وتتغير موضوعات السباق من الدرجات إلى الوظائف والزواج والبيوت، بينما يبقى السؤال الصغير نفسه: هل أنا محبوب إذا لم أكن الأفضل؟
لكن الأسرة ليست مذنبة لأنها تفرح بإنجاز أحد أفرادها. الخلل يبدأ حين يصبح الفرح أداة ترتيب، ويُستعمل نجاح شخص لتأديب شخص آخر. عندئذ يُحمَّل الناجح عبء إثبات تفوقه باستمرار، ويُحمَّل غيره عبء الدفاع عن حقه في الاحترام. وحتى صاحب النعمة قد يعجز عن الاستمتاع بها، لأنه يشعر بأن فرحته تجرح، أو بأن محبة أهله مشروطة ببقائه في الصدارة.
المقارنة هنا لا تفسد العلاقة بين اثنين فحسب، بل تعيد تشكيل البيت محكمةً دائمة الانعقاد.
وفي العمل، تتخذ المسألة مظهراً أكثر عقلانية: مؤشرات، وتقييمات، ومسميات وظيفية. وهذه أدوات لازمة حين تضبطها معايير واضحة، لكنها قد تمنح الانطباعات ثياباً رسمية. فإذا غابت أسباب الترقية، صار كل نجاح قابلاً لتأويلين: استحقاق لا نعرفه، أو محاباة لا نستطيع إثباتها. وفي هذا الغموض تتكاثر المقارنات، لأن الناس تحاول استنتاج القاعدة من نتائجها. وليس من الإنصاف مطالبة الموظف بصفاء القلب، ثم تركه في مؤسسة توزع الفرص كأنها أسرار شخصية.
مع ذلك، لا يعفينا فساد بعض المعايير من فحص ما يجري في داخلنا. فقد يكون الاعتراض عادلاً في أصله، ثم يتسع حتى يصير عداوة لكل من تقدم. والتمييز هنا دقيق: هل أريد معياراً منصفاً، أم أريد نتيجة تضعني أولاً؟ هل يرضيني تصحيح الإجراء إذا انتهى إلى فوز زميلي، أم أن عدالتي المعلنة لا تتسع إلا لانتصاري؟ ليست هذه الأسئلة لإسكات المطالبة بالحق، بل لحمايتها من أن تتحول، دون انتباه، إلى اسم محترم للخصومة.
ومن هذا الفحص تبدأ معرفة النعمة. لا بمعنى إعداد قائمة متعجلة بما نملك كي نخجل من ألمنا، بل بمعنى ردّ الأشياء إلى حقيقتها وعلاقاتها. البيت ليس شهادة نهائية على حسن التدبير؛ قد تدخله مساعدة عائلية لم نعرفها. والمنصب ليس مقياساً صافياً لقيمة الإنسان؛ قد يلائم مهارة بعينها ولا يلائم أخرى. وحين نعرف حدود الدلالة، يتوقف الشيء عن الادعاء بأنه يقول كل شيء. يصبح بيت الأخت بيتاً، لا تفسيراً كاملاً لحياة أختها وحياتنا.

ومعرفة نعمتنا تحتاج كذلك إلى انتباه لا تصنعه المقارنة. فقد اعتادت سلمى أن ترى الوقت الذي تمنحه لأمها مجرد سبب لتأخرها المهني، ولم تسأل عما حفظه ذلك الوقت من صلة وطمأنينة. وليس المقصود تجميل كلفة الرعاية أو مطالبتها بالتضحية الصامتة، بل الاعتراف بأن بعض ما نختاره يثمر خارج المقاييس الرائجة. وقد نحتاج إلى تعديل الاختيار، أو طلب المساندة، دون أن نصف الأعوام التي بذلناها بأنها أعوام ضائعة لمجرد أنها لم تنتج لقباً أعلى. فلسفياً، تكمن قسوة المقارنة في اختزال الحيوات إلى وحدة قياس واحدة. ونحن لا نعيش بالشروط نفسها، ولا نريد الأشياء للغايات نفسها، ولا ندفع الأثمان ذاتها. ومع ذلك، نقارن النتائج كما لو كنا قد بدأنا من نقطة واحدة وحملنا الحمولة نفسها. والاعتراف بالقدر هنا لا يلغي مسؤولية السعي، بل يردّ إلى الإنسان تواضعه: ليست كل زيادة شهادة استحقاق، ولا كل حرمان إدانة. وما غاب عنا من أسباب الأرزاق أوسع من أن تحيط به نظرة إلى واجهة بيت أو باب مكتب.

وقد يعترض معترض: أليست المقارنة باعثاً على الاجتهاد؟ وهل الدعوة إلى معرفة النعمة سوى وسيلة مهذبة لتسكين الطموح وإبقاء الناس في مواقعهم؟ الاعتراض وجيه، خصوصاً حين يُطلب الرضا ممن حُرم حقه، بينما يُسمح للمستفيد بأن يوسّع مكاسبه بلا مساءلة. لذلك ينبغي الفصل بين الرضا عن أصل الوجود والقبول بكل ترتيب بشري. يستطيع المرء أن يشكر الله، ويطالب بأجر منصف، وأن يحب أخاه، ويرفض تفضيل الأسرة له في الحقوق.

أما المقارنة النافعة فتعطينا معلومة ثم تنصرف: كيف اكتسب زميلي هذه المهارة؟ ما الذي أستطيع تعلمه؟ وأما المقارنة التي تستولي علينا فتطالبنا بهزيمة صاحب المعلومة قبل الانتفاع بها. الأولى توسع قدرتنا على الفعل، والثانية تجعل الفعل رهينة ترتيبنا بين الناس. ويمكن امتحان الفرق بسؤال بسيط: لو لم يعرف أحد بهذا الإنجاز، هل سأظل أريده؟ قد تكشف الإجابة حاجة حقيقية، وقد تكشف أننا نسعى إلى شيء لا نحبه، فقط لأن غيرنا نال به التصفيق.

لم تتخلص سلمى من غيرتها في لحظة صفاء. سألت مديرها عن معايير الترقية، وطلبت أهدافاً واضحة للمرحلة المقبلة، ثم اعتذرت لهالة عن جفافها دون أن تجعلها مسؤولة عن طمأنتها. وفي زيارة أخرى، جلست مع ندى في شرفتها الجديدة، وسألتها عن الشجرة التي تريد زراعتها. كان البيت لا يزال جميلاً، وكانت نافذة شقتها لا تزال تحتاج إلى إصلاح؛ لكن بين الحاجتين متسعاً لم تره من قبل، متسعاً يمكن أن تبدأ فيه حياة لا تنتظر انطفاء مصباح عند الآخرين كي تفتح نافذتها للضوء.

حين تأخّر الجواب فظهر صاحبه

حين أعلن أخوه خبر ترقيته أمام العائلة، رفع نادر كأس الماء وابتسم الابتسامة التي يعرفونها: قصيرة، مطمئنة، لا تفسد على أحد فرحته. كانت الوظيفة الجديدة تعني مكتباً أوسع، وراتباً أعلى، وانتقالاً إلى مدينة أخرى. قالت خالته: «هكذا نريدك دائماً». وأضاف قريب له: «أخيراً لحقت بأصحابك». ضحك الجميع، وانتظروا منه عبارة امتنان مناسبة. لكنه وضع الكأس قبل أن يشرب، وقال بصوت بدا غريباً حتى عليه: «لم أوافق بعد». سكت المجلس لحظة، ثم سأل أبوه: «وما الذي تنتظره؟». لم يجد نادر جواباً جاهزاً. وللمرة الأولى لم يُستعر واحداً.

لم تكن الحكاية حكاية رجل زاهد في المال، ولا موظف اكتشف فجأة أنه خُلق لشيء عظيم. كان يحب الراحة، ويفرح بالثناء، ويحسب مصروف البيت بعناية. لكنه أمضى سنوات يختار الخطوة التي تجعل شرح حياته للآخرين أسهل. درس تخصصاً يسهل التفاخر به، واشترى سيارة لا يحتاج إلى حجمها، وتعلّم كيف يحوّل التعب إلى خبر سار: كثرة العمل دليل أهمية، والدَّين علامة تقدّم، وضيق الوقت شهادة على أن السوق يطلبه. كلما ضاقت عليه حياته، وسّع الحكاية التي يرويها عنها.

في تلك الليلة لم ينم نادر منتصراً. راجع وجوه الجالسين، وخشي أن تكون عبارته قد بدت جحوداً أو تظاهراً بالاستقلال. ثم فتح الرسالة التي تعرض عليه المنصب، وقرأ تفاصيل كان قد تجاوزها: سفر متكرر، وإدارة فريق كبير، واستعداد دائم للاتصال خارج الدوام. لم يكره هذه الشروط، لكنه لم يعرف لماذا وافق عليها في خياله قبل أن يقرأها. تناول ورقة وكتب سؤالاً صغيراً: «لو لم يعرف أحد بهذه الترقية، فهل سأرغب فيها؟». بقي القلم بين أصابعه طويلاً، كان يعرف مهنته، ولا يعرف بعدُ كيف يصغي إلى رغبته.

على مدى الأسابيع التالية بدأ يسمع في كلامه أصواتاً موزعة على أصحابها. عبارة «هذه فرصة لا تتكرر» كانت لمديره، و«الرجل لا يتراجع» لعمه، و«ماذا سيقول الناس؟» لم يكن لها صاحب محدد؛ كانت أشبه بأثاث قديم ورثته العائلة من غير قائمة جرد. أما صوته فلم يظهر في صورة خطاب بليغ. ظهر أولاً في تردد، ثم في طلب مهلة، ثم في اعتراف لزوجته بأنه يخاف أن يخسر المكانة أكثر مما يرغب في العمل الجديد. لم تصفق له؛ سألته عن المال، والمدرسة، واحتمال الندم. وكان ذلك نافعاً: صار يتحدث مع شريكة في حياة، لا مع جمهور ينتظر عرضه التالي.

ما عاشه نادر ليس انعداماً للشخصية، بل اعتياداً طويلاً على الوصول إلى النفس عبر عيون الآخرين. فالإنسان يتعلم اسمه من فم غيره، ويكتشف كثيراً من قدراته لأن أحداً انتبه إليها. غير أن هذه الوساطة قد تمتد حتى تحتكر الطريق كله. عندئذ لا يعود السؤال: ماذا أرى؟

بل: كيف سيبدو ما أراه؟ ولا: هل أستطيع تحمّل هذا الاختيار؟ بل: هل يمكن تقديمه بوصفه نجاحاً؟ هنا تفقد الخبرة الداخلية حقها في الشهادة، ويغدو المرء محتاجاً إلى تصديق خارجي حتى على تعبه.

ولذلك يكون استرداد الصوت مربكاً في بدايته. الكلام المستعار يصل مصقولاً، تدعمه أمثال متداولة وحكايات منتقاة عن الناجحين. أما الكلام الشخصي فيخرج ناقصاً: «لست متأكداً»، «هذا يرهقني»، «أحتاج أن أفهم». وقد يظن صاحبه أن ركاكته دليل بطلانه، فيعود إلى الجمل المهيبة التي لا تسكنه. لكن التلعثم هنا قد يكون كلفة الصدق، لا علامة ضعف الحجة. من عاش طويلاً يجيب عن أسئلة الناس يحتاج وقتاً ليتعلم طرح السؤال الذي يخصه، ووقتاً أطول ليقبل أن جوابه قد يتغير.

وتساند البيئة الاجتماعية هذا الاغتراب حين تجعل الاعتراف بالإنسان مشروطاً بعناوين قليلة: منصب، وملكية، واسم مؤسسة، ووجهة سفر. ليست المشكلة في هذه الأشياء ذاتها، بل في ضيق اللغة التي نستقبل بها بعضنا. نسأل القادم عن ترقيته قبل أن نسأله عما تعلّمه، ونمدح المرهق لأنه مطلوب، ثم نستغرب عجزه عن الراحة. وقد يفعل الأقربون ذلك محبةً وخوفاً عليه، لا رغبةً في إخضاعه؛ فهم أيضاً تعلّموا أن الأمان يُشترى بالمكانة. حسن النية لا يلغي الأثر، لكنه يمنعنا من تحويل كل علاقة إلى محكمة اتهام.

وفلسفياً، ليس صوت الإنسان جوهراً صافياً مدفوناً تحت المجتمع، يكفي أن نزيح عنه الآخرين ليظهر. نحن نتكوّن باللغة والتربية والصحبة والخطأ، ونحمل في ضمائرنا آثار من أحبونا ومن آذونا. والاستقلال الممكن ليس محو هذه الآثار، بل اكتساب القدرة على فحصها: ما الذي أتبناه بعد نظر؟ وما الذي أكرره اتقاءً للحرج؟ ليس كل موروث قيداً، كما أن كل جديد ليس تحرراً. قد يستعيد المرء صوته حين يفهم وصية أبيه فهماً أعمق، وقد يفقده وهو يردد شعارات التمرد التي يصفق لها أصدقاؤه.

وللإيمان هنا أفق يحرر السؤال من ابتزاز المشاهدين. فاستحضار مراقبة الله يذكّر المرء بأن حقيقة عمله لا تستنفدها صورته عند الناس، وأن الأمانة أوسع من السمعة. لكنه لا يمنحه صكاً لتقديس رغباته؛ عليه أن يتحرى العدل، ويؤدي الحقوق، ويستشير، ويأخذ بالأسباب. والإيمان بالقدر لا يعفيه من الاختيار، بل يعينه على العمل من غير ادعاء امتلاك النتائج. يستطيع أن يرجو الخير، ثم يحتمل أن تأتي ثمرة القرار مختلفة عما حسب، دون أن يجعل اختلافها حكماً على قيمة وجوده.

وقد يعترض معترض: أليس هذا ترفاً نفسياً؟ ماذا يصنع بصوته من يعول أسرة، أو يخشى البطالة، أو لا يملك إلا فرصة واحدة؟ أليس الإكثار من سؤال الرغبة باباً للتردد والأنانية؟

والاعتراض وجيه؛ فالحديث عن الأصالة يصير قاسياً إذا تجاهل الخبز والالتزامات. ليس المطلوب أن يرفض الإنسان ما لا يحبه كلما ضاق به، ولا أن يحمّل أهله ثمن اكتشاف نفسه. قد يقبل عملاً شاقاً وفاءً لمسؤولية، ويكون في قبوله أصدق مما يكون آخر في استقالة استعراضية. الفرق أن يعرف ما يفعل، وألا يضطر إلى تزوير معناه. يستطيع أن يقول: أقبل الآن لحاجة، وأراجع الأمر بعد عام. ويستطيع أن يفاوض على شرط، أو يضع حداً، أو يحتفظ بجزء من وقته لا تسعّره المؤسسة. استرداد الصوت قد يبدأ من تسمية الضرورة ضرورةً، بدلاً من ارتداء ثوب الفائز طوال الوقت. كما يحتاج إلى تدريب صغير متكرر: رأي لا يعتذر عنه قبل قوله، وإنصات لا يتحول إلى إذعان، وقدرة على سماع خيبة الآخرين من غير الإسراع إلى إنقاذهم بالتنازل.

أما نادر، فطلب تعديل شروط الانتقال، وقَبِل بعض ما عُرض عليه ورفض بعضه. لم تنقلب حياته إلى طمأنينة كاملة، وظل يقارن نفسه أحياناً بمن سبقوه. لكنه حين عاد أبوه يسأله عن قراره، لم يلقِ مرافعة تثبت أنه الأذكى، ولم ينتظر إذناً ليقتنع. شرح ما يستطيع تحمّله، وما يخشاه، وما يرجوه، ثم سكت. وفي ذلك السكوت وجد مكاناً لم يكن يعرفه: أن يبقى قريباً ممن يحب، من غير أن يختفي في الصورة التي يحبونها له. ومنذئذ صار يترك في كل جواب مساحةً لما لم يسمعه من نفسه بعد.

الفصل الثالث: سيكولوجية القطيع الرقمي

ليست العزلة نقيض القطيع دائماً؛ فقد يجلس المرء وحده، وتظل الجموع تتكلم في داخله. يغلق بابه، لكنه يترك ميزان قيمته معلقاً على شاشات الآخرين، ويحسب أنه اختار رأيه لأنه نطق به بصوته، مع أن عبارته اجتازت أفواه المئات قبل أن تبلغ لسانه. ليست المسألة، إذن، كم شخصاً يحيط بنا، بل كم صوتاً استقر فينا من غير مساءلة، وكم رغبة سمّيناها رغبتنا بعدما تعلّمنا أن الرغبة المقبولة هي التي تجد جمهوراً يصفق لها.

العزلة الإيجابية فرصة لاسترداد المسافة بين ورود الفكرة والتسليم بها. وهي لا تستحق اسمها لمجرد أنها مريحة؛ فقد تضيق النفس في أول الخلوة حين تسمع ما كانت الضوضاء تحجبه عنها. وليس مطلوباً أن تنتهي كل ساعة صمت بخطة نجاح، أو حكمة قابلة للنشر، أو نسخة أكثر إنتاجاً من صاحبها. ذلك أيضاً من تسلل السوق إلى الروح: أن يصبح الانفراد بالنفس استثماراً لا يُقبل إلا إذا أخرج عائداً، وأن يُحرم الإنسان حتى من حقه في سكون لا يعرض شهادة جدواه.

في مساء عادي، يكتب رجل في مجموعة أصدقائه اعتراضاً هادئاً على عبارة يتداولونها: «من أراد استطاع». يتذكر قريباً سعى وأخفق، وعاملاً أنهكه الاجتهاد ولم يسعه رزقه، ثم يرى إشعارات الإعجاب تتكاثر تحت العبارة. يمسح ما كتب، ويرسل علامة استحسان. لا أحد هدده، ولا أحد أمره؛ غير أن كلفة الاختلاف بدت له، في تلك اللحظة، أثقل من كلفة خيانة ملاحظته الصغيرة. وحين يضع الهاتف جانباً، يكتشف أن الصمت الذي مارسه لم يكن راحة، بل عملاً خفياً لتأمين بقائه مقبولاً.

هنا ينبغي التمييز بين صمت يصون التروي وصمت تديره الخشية. الأول يؤخر الكلام حتى ينضج، والثاني يؤجله حتى يموت. وقد تتشابه الآراء لأن أصحابها نظروا فاهتدوا إلى معنى مشترك، فلا يُذم الاتفاق لذاته؛ لكن التشابه يصير موضع سؤال حين تغيب أسبابه وتحضر عقوبات الخروج عليه: تلميح بالضعف، أو اتهام بالسلبية، أو سحب بطيء للمودة. عندئذ لا نرى طمأنينة جماعية بقدر ما نرى تفاوضاً صامتاً على شروط القبول.

وللمؤمن في الخلوة متسع يراجع فيه قصده، ويذكر أن الخلق لا يملكون له ميزان الحق ولا تمام الرزق. يأخذ بالأسباب، ويحسن الظن بالله، من غير أن يجعل الأمل إنكاراً للمشقة أو يجعل تعثر غيره دليلاً على فساد نيته. فإذا عاد إلى الناس، عاد أقدر على صحبتهم: يسمع

المختلف من غير فزع، ويوافق عن بصيرة، ويخالف من غير استعلاء؛ لا يطلب من المجلس نسخة منه، ولا يسلّمه حق صياغة ضميره.

حين يصبح الغضب شهادةَ انتماء

ليس أشدَّ على المرء من أن يجد نفسه، فجأة، مطالباً بإثبات براءته من تهمة لم تُوجَّه إليه؛ يكفي أنه لم يغضب حين غضب الجميع. في المجال الرقمي، قد يتحول الصمت من حقٍّ في التريث إلى قرينة اشتباه، ويغدو السؤال عن السياق علامةَ تواطؤ، كأن الجماعة لا تطلب منك أن ترى ما رأت، بل أن تشعر في الموعد الذي حددته، وبالحدة التي ارتضتها. هنا يبدأ الخوف من النبذ عمله الخفي: لا يغيّر الرأي دائماً، لكنه يغيّر ما نجرؤ على إظهاره منه.

يتوقف شاب أمام مقطع مبتور لرجل لا يعرفه. يقرأ التعليقات قبل أن يسمع الكلام كاملاً، فيجد الحكم قد صدر، والعقوبة الرمزية تُنفَّذ بتتابع الشتائم. يكتب: «لعلنا نحتاج إلى معرفة ما سبق هذا الكلام»، ثم يمحو عبارته. لا لأنه اقتنع بالإدانة، بل لأنه تخيل اسمه في المنشور التالي، ورأى أصدقاءه ينسحبون من حوله اتقاءً للشبهة. يضع علامة استنكار ويمضي. حركة إصبع صغيرة، لكنها تحمل تنازلاً دقيقاً: أن يستعير الإنسان يقين الآخرين ليحمي موضعه بينهم.

ولا تحتاج الخوارزمية إلى أن تفهم هذا الخوف كي تنتفع به. يكفي أن تُكافَأ، في تصميمها، على إبقاء النظر مشدوداً؛ فتتعلم من النقر والتعليق والمشاركة أيَّ المواد تستدعي عودة المستخدم. والغضب، بما فيه من استعجال ورغبة في الرد، قادر على إطالة هذا الاشتباك. هكذا قد يتقدم المحتوى الأشد إثارة لا لأنه أصدق، بل لأنه أكثر قدرة على تحريك الأيدي. ثم نخطئ حين نقرأ كثرة ظهوره بوصفها دليلاً على إجماع الناس، مع أننا نرى حصيلة انتقاء تقني تتداخل فيه ميولنا السابقة مع حوافز المنصة.

وبين الخوف من الخروج والرغبة في الظهور، ترتفع كلفة الاعتدال. فصاحب العبارة المتحفظة يحتاج إلى شرح، أما صاحب الإدانة الجارفة فيكفيه شعار. تتسارع الأحكام، ويصبح التراجع عنها خسارةً للمكانة، فيدافع المرء عن قسوته بعدما زال سببها، لا وفاءً للحقيقة، بل اتقاءً لحرج الاعتراف. عندئذ لا تعود الجماعة شاهدةً على الواقعة؛ تصير أسيرةً للصورة التي صنعتها عن نفسها وهي تحاكمها.

ليس الاعتراض على الغضب للظلم، ولا على اجتماع الناس لنصرة مظلوم؛ فللضمير غضبه المشروع، وللتناصر منزلته. إنما الخطر أن تُختزل النصرة في محاكاة الانفعال، وأن يُسلَّم ميزان العدل إلى سرعة التداول. والتثبت أدبٌ إيماني ومسؤولية، لا حيلة للتهرب من الموقف. من حق الحقيقة علينا أن نمنحها زمناً لا تمنحه المنصة، ومن حق الإنسان ألا نجعل سمعته وقوداً

لدفء انتمائنا. فقد يكون أثقل ما يفعله الضمير أن يحتمل صاحبه برودة العزلة قليلاً، بدلاً من أن يستدفئ بظلم أحد.

وللانتماء لحظةٌ خفيّة يتبدّل فيها معناه: حين لا يعود المكان الذي نتّسع فيه إنسانيتك، بل القالب الذي ينبغي أن تضيق على قدره. لا يطلب منك القطيع الرقمي أن تكذب دائماً، يكفيه أحياناً أن تؤجّل سؤالك، وأن تضحك في الموضع المقرّر، وأن تمنح غضبك للجهة التي اختيرت قبل أن تصل. ثم يسمّي هذا كلّه وفاءً، كأن الوفاء إعفاءٌ من التمييز، وكأن الجماعة لا تثق بأبنائها إلا إذا تركوا ضمائرهم عند الباب.

كان سالم يجد في مجموعة الحيّ شيئاً من دفء المجالس القديمة. يسألون عن الغائب، ويتعاونون على قضاء الحاجات، وينشرون أخبار المرضى ليدعو لهم الجيران. وفي مساء شتوي، ظهرت رسالة تدعو إلى مساعدة أسرة متعفّفة، مرفقة بصورة بابها واسم عائلها. تتابعت التعهّدات، ثم كتب أحدهم: «من يقرأ ولا يشارك، فليراجع قلبه». شعر سالم بحرارة في وجهه، مع أنه كان قد أعان الأسرة من قبل، ولم يخبر أحداً.

كتب سؤالاً صغيراً: «هل أذنت الأسرة بنشر الصورة؟» ثم ظلّ إصبعه فوق زر الإرسال. لم يكن يخشى الجواب بقدر ما يخشى أن يتبدّل موقعه بينهم؛ أن يصير، في دقائق، الرجل الذي يعطّل الخير. أرسل السؤال أخيراً، فجاءه ردّ يستحثّه على العمل بدل التدقيق، وتبعته إشارات موافقة كثيرة. وضع الهاتف جانباً، وأدرك كم يسهل أن يستعير المرء يقين الجماعة ليرتاح من كلفة موقفه.

لم يغادر المجموعة، ولم يحوّل اعتراضه إلى محاكمة لنيّات أهلها. اتصل بصاحب المبادرة، وشكره على سعيه، وطلب منه أن يتثبّت من رضا الأسرة وأن يحجب ما يكشفها. وعرض أن يساهم في إيصال العون بعيداً عن الصور. كان يستطيع أن يصنع من اعتراضه منشوراً يجمع به جمهوراً آخر، لكنه اختار عملاً أقلّ ظهوراً وأشدّ التزاماً بما قال.

هنا يفترق التفكير الحر المسؤول عن لذّة المخالفة. فليس حراً من يعكس اتجاه الجمهور في كل مرة؛ قد يبقى مربوطاً به، يستمدّ منه موضوعه وحركته. الحرية أن تنظر في الأمر نفسه، وأن تقبل من جماعتك ما يستقيم، وتراجع ما يختلّ، وتترك لنفسك احتمال الخطأ. ولا يناقض ذلك الإيمان؛ فالضمير ليس خصماً للأخوّة، والتثبّت ليس جفاءً، وصيانة كرامة المحتاج جزءٌ من الإحسان إليه.

أما التبعية فتغريك بطمأنينة عاجلة: ما دام الجميع يفعلون، فلن تُسأل وحدك. غير أن كثرة الأيدي لا تُسقط مسؤولية اليد التي لك. تحتاج الجماعة إلى من يحبّها بما يكفي ليسألها، ويصبر على حرج السؤال، ثم يبقى معها ليحمل نصيبه من العمل، لا ليكتفي بسلامة اعتراضه.

من صيانة الضمير إلى هندسة الامتثال

عند هذه العتبة، لا يعود السؤال: كيف نحتمي من كثرة الأصوات؟ بل: كيف نمنعها من الإقامة في الموضع الذي نزن به أنفسنا؟ فالضجيج لا ينتصر حين نسمعه، وإنما حين نستعير منه معيار الرضا والسخط، فنخجل من حزنٍ لم يأذن به، ونستصغر عملاً صالحاً لأنه لم يُرَ، ونشك في سلامة طريقنا لأن العابرين فيه أقل عدداً. هنا تبدأ حماية الضمير: باسترداد المسافة بين ما يستحق أن يُفعل، وما يسهل أن ينال التصفيق.

وليس الإيمان حيلةً لتخدير هذه المسافة، ولا وعداً بأن المؤمن لا يضيق أو يتردد؛ إنه مما يردّ الإنسان إلى ميزانٍ لا تصنعه الحشود. التوكل لا يعفينا من النظر في الأسباب، والرضا بالقدر لا يلزمنا بتسمية الظلم فرصةً جميلة، والصبر لا يمنح أحداً حق مطالبتنا بابتسامة دائمة. وحين تُختزل هذه المعاني في عبارات قابلة للتسويق، يُنتزع منها ثقل التكليف، وتُستعمل لتهذيب اعتراض المتضرر بدلاً من مساءلة ما أضرّ به. ليست المشكلة في الدعوة إلى الأمل، بل في تحويل الأمل إلى واجب استعراضي يُدان من يعجز عن أدائه.

تخيّل رجلاً يعود من يوم عمل شاق، فيفتح هاتفه قبل أن يخلع معطفه. يجد من يخبره أن التعب ضعف في تنظيم الذات، وأن قلة المال قصور في الطموح، وأن الناجحين لا يتركون لأنفسهم وقتاً للشكوى. لا يحتاج المشهد إلى آمرٍ ظاهر؛ تكفي رسائل متتابعة، ومقارنات منتقاة، حتى يتحول المساء من وقت يسترد فيه الرجل نفسه إلى محكمة يتولى فيها اتهامها. وقد يشتري دورة لا يحتاج إليها، أو يزيد ساعات عمله على حساب أهله، لا لأنه اختار غايةً أوضح، بل لأنه صار يخشى أن يبدو متأخراً.

بهذا المعنى يحدث الانتقال إلى السيطرة: لا بمصادرة القرار دفعة واحدة، بل بتضييق المجال الذي يتكوّن فيه. تُربط الكرامة بالظهور، والكفاءة بالانشغال، والنجاة بمواكبة ما لا ينتهي؛ ثم يُترك للفرد أن يختار، بعد أن أُثقِل بعض الخيارات بالعار وزُيّن بعضها بالقبول. وليست كل نتيجة من هذا النوع ثمرة تدبير مقصود؛ فقد تتضافر مصالح المنصات والبائعين وعادات المستخدمين لتنتج ضغطاً لا يحتاج إلى مركزٍ واحد يديره.

ومقاومة ذلك ليست اعتزالاً للعالم ولا اطمئناناً إلى عصمة النفس، وإنما تدريب هادئ على تأخير الاستجابة: أن نسأل قبل الامتثال مَن ينتفع بعجلتنا، وأن نفرّق بين نصيحة تزيد قدرتنا على الحكم ورسالة تجعلنا أشد اعتماداً على صاحبها. ولعل أول ما نصونه هو حق الضمير في أن يتأنى؛ فبغير هذا التؤدة، قد نظن أننا نقود حياتنا، بينما نحن لا نفعل سوى الإجابة السريعة عن مطالب الآخرين.

حين يلبس الرأي اسم صاحبه

نشر سالم صورة لأشجار مقطوعة، وكتب تحتها أن مشروعاً جديداً سيبتلع الحديقة الوحيدة في الحي. لم يكن ناشطاً معروفاً، ولا صاحب معرفة تفصيلية بالتخطيط العمراني؛ كان أباً يصطحب طفلته إلى تلك الحديقة مساء الجمعة. خلال ساعات، خرج منشوره من دائرة أصدقائه، وصار اسمه مقترناً بالدفاع عن المكان. أرسل إليه غرباء شهادات امتنان، ودعته مجموعة أهلية إلى الحديث باسم السكان، وكتب أحدهم: «أخيراً وجدنا من لا يبيع ذاكرته». شعر، للمرة الأولى منذ سنوات، بأن صوته أحدث فرقاً يتجاوز حدود بيته.

بعد يومين، تبيّن له أن الصورة قديمة، وأن الأشجار المقطوعة تقع في موقع آخر. أما المشروع، فعليه اعتراضات وجيهة بالفعل، لكن الوثيقة المتداولة عنه كانت مبتورة. فتح سالم صفحة الكتابة ليصحح منشوره، ثم توقف. لم يعد أمامه خطأ في صورة فحسب؛ كان أمامه وجهه الجديد بين الناس. ماذا سيقول الذين وثقوا به؟ وهل سيقتطع خصوم الحملة تصحيحه ليعلنوا أن الاعتراض كله كذبة؟ أغلق الصفحة، وكتب بدلاً من التصحيح منشوراً غاضباً عن «محاولات إسكات صوت الحي». في تلك اللحظة، بدأ يدافع عن شيء آخر غير الحديقة.

ليس التحول من الرأي إلى الهوية انتقالاً معلناً. نادراً ما يقول المرء لنفسه: سأجعل هذه الفكرة جزءاً من قيمتي الإنسانية. يحدث الأمر على دفعات صغيرة: موافقة تمنحه دفئاً، ومشاركة تفتح له باباً، وخصومة تجعله معروفاً، ثم لغة جديدة يصف بها نفسه والآخرين. كان يقول: «أرى أن هذا القرار خاطئ»، ثم صار يقول: «نحن الذين نفهم ما يجري». وبين العبارتين مسافة حاسمة؛ الأولى تسمح بمراجعة القرار، أما الثانية فتجعل المراجعة امتحاناً للانتماء. وحين يصبح الرأي بطاقة دخول إلى جماعة، يغدو تصحيحه شبيهاً بتسليم البطاقة عند الباب.

يحتاج الإنسان إلى قدر من الاتساق كي يفهم نفسه. لا يستطيع أن يعيش كل صباح كأنه شخص بلا ماضٍ، ولا أن يعيد بناء حكمه على العالم من الصفر. لكن هذه الحاجة المشروعة قد تنقلب إلى عبء حين يخلط بين اتساق الضمير وثبات الأحكام. فالضمير المتسق قد يوجب عليه اليوم مخالفة ما قاله بالأمس، لأن معلومة ظهرت، أو مظلمة اتضحت، أو حجة سقطت. أما الصورة الجامدة عن الذات فتطالبه بأن يبقى مطابقاً لنسخته السابقة، ولو اتسعت معرفته. وهكذا يُستعمل الوفاء للنفس أحياناً لمنع النفس من النضج.

وتضاعف المنصة الرقمية هذا المأزق لأنها تحفظ للإنسان أقواله، ثم تعيد عرضها منفصلة عن ظروفها. التردد الذي كان يقال في مجلس محدود يصبح تصريحاً قابلاً للاستدعاء بعد

أعوام، والعبارة التي كتبها صاحبها في غضب تتحول إلى شاهد دائم على «حقيقته». تحت هذا الاحتمال، يتعلم بعض الناس أن يمحوا سجلهم بدلاً من تحسين أحكامهم. لا يسألون: ما الذي صار أرجح الآن؟ بل يسألون: كيف أقول شيئاً لا يُستعمل ضدي؟ فتضيق مساحة التفكير العلني، وتكثر المناورات التي تحفظ الهيئة وتترك الخطأ في مكانه.

وثمة كلفة اجتماعية لا يجوز الاستخفاف بها. قد يربح الإنسان من موقفه صحبة، ومكانة، وربما عملاً أو جمهوراً يعتمد عليه رزقه. وقد يجد في جماعته اعترافاً حُرم منه طويلاً، فيخشى أن تعيده المراجعة إلى وحدته الأولى. لذلك لا يكفي أن نفسر كل تشبث بأنه غرور؛ أحياناً يكون وراءه خوف من خسارة المائدة التي اتسعت له أخيراً. وإذا كانت الجماعة لا تمنح المحبة إلا للموافق، فإنها تدرب أبناءها على إخفاء الشك، ثم تشتكي من قلة الصادقين فيها. الولاء المشروط بالتطابق يفسد المعرفة والمودة معاً.

عندئذ تتغير طريقة استقبال الدليل. الخبر الذي يؤيد الموقف يدخل سريعاً، كأنه قريب لا يحتاج إلى تعريف، بينما يُوقف الخبر المخالف على عتبة طويلة من الأسئلة. وقد تكون الأسئلة في ذاتها صحيحة: ما المصدر؟ وما السياق؟ ومن المستفيد؟ لكن الخلل في توزيعها؛ إذ تُستعمل أدوات الفحص مع الخصم وحده، وتُعفى منها رواية الجماعة. لا يفقد المرء قدرته على التفكير بالضرورة، بل قد يسخر ذكاءه كله لحراسة نتيجة سبقت البحث. وكلما أحسن الدفاع، ازداد صعوبة عليه أن يرى أن مهارته ربما تحمي موضع ضعفه.

وفي العمق، تتصل المسألة بفهمنا لكرامة الإنسان. إذا كانت قيمتي معلقة بأن أكون مصيباً دائماً، فكل خطأ تهديد لوجودي المعنوي. أما إذا كانت كرامتي أوسع من حكمي الراهن، أمكنني أن أتحمل نقص المعرفة من غير أن أشعر بالإلغاء. وفي الإيمان ما يسند هذا التواضع: الإنسان مسؤول عن تحري الحق، وليس موكلاً بإحاطة لا يملكها؛ والله أعلم بالسرائر، فلا يحتاج المرء إلى ادعاء العصمة كي يصون قدره. وقد يكون الاعتراف بالخطأ وفاءً للأمانة التي أراد الدفاع عنها، لا خروجاً عليها.

غير أن الفصل بين الذات والرأي لا يعني تحويل الإنسان إلى متفرج بارد، بلا التزام ولا جذور. فمن الآراء ما يمس حقوق الناس وواجباتهم، ومن المواقف ما يستحق الصبر وكلفة الثبات. الفارق أن نعرف موضع العهد: هل تعاهدنا على العدل، أم على صحة روايتنا عن حادثة بعينها؟ يستطيع سالم أن يبقى مدافعاً عن الحديقة، وأن يسحب الصورة الخاطئة؛ بل إن سحبها يحمي القضية من أن تُبنى على ما لا يثبت. المبدأ لا يضعف حين تُنقّى حججه، وإنما يضعف حين يصبح محتاجاً إلى الخطأ ليستمر.

وقد يعترض معترض: أليست الدعوة إلى المراجعة باباً للتلون؟ كم من صاحب مصلحة غيّر موقفه ثم سمى انتقاله شجاعة فكرية! والاعتراض وجيه، لأن التراجع ليس فضيلة بمجرد وقوعه، كما أن الثبات ليس فضيلة بمجرد طوله. يُنظر في أسباب التحول، وفي الأدلة التي استند إليها، وفي استعداد صاحبه لتحمل تبعاته. من يغير رأيه عند تبدل المنافع وحدها يختلف عمن يراجعه رغم خسارة التصفيق. ومن يصحح خطأ محدداً، ويشرح ما بقي من موقفه وما تغير، يقدم للناس ما يمكن فحصه، لا يطالبهم بتصديق إعلان مبهم عن نضجه.

ولهذا تحتاج الجماعات إلى أخلاق تستقبل بها المراجعة، لا إلى مواعظ تطالب بها الأفراد وحدهم. حين يُقابل التصحيح بالتشفي، يتعلم المترددون أن الصمت أكثر أمناً من الصدق. وحين يُعامل كل اختلاف بوصفه خيانة، تصير الأخطاء أسراراً عائلية يحرسها الجميع. ليس المطلوب إسقاط المسؤولية، بل جعل تحملها ممكناً: أن يُحاسب المرء على الضرر، ويُقبل منه الإصلاح، وألا يتحول اعترافه إلى حبل يُشد به إلى خطئه إلى الأبد. ففي تلك المساحة قد يعود سالم إلى الصفحة التي أغلقها، ويكتب جملة لم يكن يعرف، قبل قليل، من سيكون بعدها.

بياضٌ يُستعار من عتمة الآخرين

في مساء عادي، رأى رجلٌ مقطعاً قصيراً لمعلّم يرفع صوته على تلميذ. لم يعرف ما سبق المقطع ولا ما تلاه، لكن التعليق المرافق كان قد اختار له موقعه: «هكذا تُهان كرامة أبنائنا». كتب إدانة حادّة، ثم عاد بعد دقائق يتفقد الإعجابات. وحين وجدها تتكاثر، شعر براحة لم تمنحه إياها ساعات يومه الثقيلة. كان قد أجّل الاعتذار لأخيه، وتجاهل شكوى عامل عنده، وقسا على ابنه صباحاً؛ غير أن ذلك كله تراجع مؤقتاً أمام إحساس دافئ بأنه يقف الآن مع الكرامة ضد الإهانة.

لم يكن كاذباً بالضرورة في استنكاره، ولم تكن إساءة المعلّم مستحيلة. المسألة أدقّ من اختراع تهمة أو الدفاع عن متّهم: لقد وجد الرجل في خطيئة بعيدة مناسبة لترميم صورته القريبة عن نفسه. وحين نشر زميل للمعلّم رواية أخرى تدعو إلى التثبت، لم يشعر صاحبنا بالامتنان لاتساع الصورة، بل بالضيق؛ كأن المعلومة الجديدة لم تهدّد حكماً متسرعاً فحسب، وإنما هدّدت الطمأنينة التي بناها على ذلك الحكم.

هنا يبدأ الغضب المتداول: انفعال ينتقل بين الناس، لكنه يغيّر وظيفته في الطريق. قد ينشأ من ألم مشروع، ثم يصير وسيلة لإثبات الانتماء، ثم يتحول عند بعض المشاركين إلى شهادة براءة شخصية. لا يعود السؤال وحده: ماذا وقع، ومن تضرّر، وكيف يُرفع الضرر؟ يزاحمه

سؤال أقل ظهوراً: ماذا تقول إدانتي عني؟ وبقدر ما يتقدم السؤال الثاني، يصبح المظلوم نفسه خلفية لصورة يقف فيها الغاضب في المقدمة.
وللغضب إغراء نفسي خاص؛ فهو يمنح المشاعر المبعثرة اتجاهاً واضحاً. قلق المرء من تقصيره غامض ومؤلم، أما غضبه على شخص محدد فيبدو حاسماً ومفهوماً. يستطيع أن يشير بإصبعه حيث يعجز عن النظر طويلاً في مرآته. وليس معنى ذلك أن كل غاضب يهرب من نفسه، بل أن الغضب قد يؤدي هذه الخدمة الخفية، حتى وهو يتحدث بلغة المبادئ. وقد يصدق الإنسان في القضية ويخدع نفسه في استعمالها في الوقت ذاته.
وتزداد الجاذبية حين تكون الإدانة قليلة الكلفة، كثيرة العائد الرمزي. إصلاح علاقة أفسدناها يحتاج إلى تواضع ووقت واحتمال لردّ قد لا يرضينا؛ أما إعلان موقف صاخب فيحتاج إلى كلمات معدودة. في الإصلاح نعرّض صورتنا للاهتزاز، وفي الإدانة العلنية نحصل غالباً على شهود يؤكدون صلاحها. وهكذا قد ينفق المرء جهده الأخلاقي حيث تكون المكافأة أسرع، لا حيث تكون مسؤوليته أعظم أو حاجته إلى التغيير أشد.
ليست المنصة مكاناً محايداً لهذا التحول. فالعبارة التي تترك باباً لاحتمال آخر أقل قابلية للتداول من العبارة التي تغلق الأبواب بعنف. والتفصيل الذي يوزّع المسؤولية يربك الحكاية، بينما يمنحها الشرير الواحد حبكة سهلة. لا تحتاج هذه البيئة إلى اتفاق مسبق بين مستخدميها؛ يكفي أن يتعلم كل واحد، من حصيلة تفاعلاته، أن اليقين المرتفع الصوت أوفر حظاً من الإنصاف المتأنّي. عندئذ يصبح التبسيط مهارة اجتماعية، لا مجرد قصور في المعرفة.
ثم تتكون حول الواقعة جماعة مؤقتة، قوامها الشعور المشترك بالنفور. لا يعرف أفرادها بعضهم، وقد يختلفون في معظم شؤون الحياة، لكنهم يلتقون عند اسم يصلح لأن يحمل ما يريدون نبذه. وكلما اشتدت الإدانة ارتفعت كلفة التحفظ؛ فمن يطلب دليلاً إضافياً قد يُتّهم بالتواطؤ، ومن يميز بين الخطأ وصاحبه قد يُحسب مدافعاً عن الخطأ. هكذا لا تكتفي الجماعة بتحديد موقفها، بل تضبط أيضاً مقدار الغضب المقبول من أعضائها.
وفي هذا المناخ يتبدل معنى الطهارة. بدل أن تكون مجاهدة دائمة للنفس، ومراجعة للنية والعمل، تصير مسافة معلنة من شخص موصوم. يكفي أن أقول: «لست مثله»، حتى أشعر أنني اقتربت مما ينبغي أن أكونه. لكن البعد عن مثال سيئ لا يساوي الاقتراب من الخير؛ فقد يرفض المرء القسوة بلسان قاسٍ، ويدين الإذلال بطريقة مذلّة، ويطالب بالعدل بينما يستكثر على خصمه حقه في البيان.
والضمير ليس متفرجاً بسيطاً على هذه العملية؛ قد يستريح إلى الإدانة لأنها تشبه العمل الأخلاقي من بعيد. فيها لغة واجب، وانحياز معلن، واستعداد للمواجهة. غير أن اختبارها

الأصدق يبدأ حين تختفي المكافأة: هل نستمر في نصرة المتضرر بعد انصراف الجمهور؟ هل نقبل تصحيح روايتنا إذا نقصت به وجاهتنا؟ هل نرضى بالعقوبة العادلة إذا كانت أقل مما طلبته حماستنا؟ هنا يظهر الفرق بين خدمة الحق واستعماله لتحسين الشعور بالذات.

وثمة خطأ فلسفي يسند هذا الإغراء: اختزال الإنسان في فعلته، ثم اختزال أنفسنا في موقفنا منها. يصبح هو إساءته وحدها، ونصبح نحن استنكارنا وحده. تُمحى الأزمنة والسياقات وإمكانات التراجع، ويُستبدل بالمسؤولية تثبيت نهائي للهويات. والعدل يحتاج إلى نسبة الأفعال إلى أصحابها، لكنه لا يحتاج إلى ادعاء الإحاطة بباطنهم أو مصائرهم. إن تحديد الذنب ليس تفويضاً مفتوحاً لمصادرة إنسانية المذنب، ولا إذناً بتوسيع العقوبة حتى تبتلع كل شيء فيه.

وفي الأفق الإيماني ما يقاوم هذا الانتفاخ دون أن يهوّن الظلم. فمعرفة الإنسان بمحاسبته أمام الله تمنعه من جعل تصفيق الناس صكّ تزكية، واستحضار حاجته إلى الرحمة يردعه عن التلذذ بإغلاق أبوابها على غيره. وليس التواضع تردداً في تسمية الإساءة، بل تذكّر حدود العلم وحدود الولاية على الخلق. يستطيع المرء أن يشهد بما علم، ويطالب بحق ثابت، ثم يمتنع عن اقتحام السرائر أو تحويل الزلة إلى قدر أبدي يكتبه بيده على صاحبها.

قد يعترض معترض: أليس هذا الكلام تليين للغضب في زمن يحتمي فيه المعتدون بالصمت؟ وكم من حق لم يظهر إلا بعد حملة عامة، وكم من ضعيف لم يجد باباً غير الشاشات! وهو اعتراض وجيه؛ فليس المطلوب تجريد المظلوم من صوته، ولا مساواة تشهير المعتدي باستغاثة ضحيته، ولا اتخاذ التثبت ذريعة لتعليق الحقوق إلى ما لا نهاية. الغضب قد يوقظ مجتمعاً ألف الأذى، وقد يفتح طريقاً أغلقته المصالح والخشية.

لكن الجواب أن قوة الاحتجاج لا تُقاس بمقدار ما يستبيحه من البشر، بل بمقدار ما ينجزه من عدل. يمكن للحملة أن تطالب بتحقيق مستقل، وحماية للمتضرر، ومحاسبة متناسبة، دون مطاردة أهل المتهم أو تداول خصوصيات لا تتصل بالفعل. ويمكنها أن تصحح خطأها علناً، وأن تفرح بوصول الحق أكثر من فرحها بسقوط الاسم. هذه الحدود لا تطفئ الغضب؛ إنها تمنعه من التحول إلى ضرر جديد يبحث عن قضية تبرره.

وربما يبدأ التحرر من إغراء الطهارة بسؤال صغير نطرحه قبل المشاركة: لو لم يعرف أحد أنني قلت هذا، فهل كنت سأبذل الجهد نفسه لنصرة صاحبه؟ ليس السؤال محكمة للنيات، ولا شرطاً لصمت كامل، بل نافذة يدخل منها هواء أقل سخونة. فقد نكتشف أن القضية تحتاج إلى شهادة هادئة، أو مساعدة خفية، أو انتظار ساعة، أو اعتذار منا نحن؛ وعندها تبدأ اليد التي اعتادت الإشارة إلى الآخرين تتعلم عملاً آخر.

غرفةٌ للروح لا يدخلها التصفيق

في مساء الخميس، عادت مريم من عملها، ووضعت هاتفها في درج المطبخ قبل أن تخلع معطفها. لم تكن قد خاصمت أحداً، ولا قررت اعتزال العالم. كانت قد أمضت النهار تدافع في مجموعة العمل عن رأي لم تفكر فيه بما يكفي، وتواسي صديقة بعبارات كتبتها على عجل، وتضحك تحت صورة لم تجدها مضحكة. وحين سألتها ابنتها عما يشغلها، قالت: «أحتاج أن أعرف ماذا كنت أريد أن أقول اليوم، قبل أن أقول ما ينتظره الناس مني».

جلست قرب النافذة عشر دقائق. في البداية لم تجد سكينة، بل شعرت كأنها تركت باباً مفتوحاً في شارع مزدحم. تخيلت الرسائل تتراكم، والآخرين يفسرون غيابها، ويداً خفية تحذف اسمها من دائرة الاهتمام. مدت يدها نحو الدرج، ثم أعادتها. لم يكن انتصارها تلك الليلة أنها بلغت صفاءً استثنائياً، كان أنها احتملت ألّا تعرف، لبعض الوقت، ما الذي يحدث بعيداً عنها.

تبدأ العزلة الناضجة من احتمال هذا النقص الصغير في المعرفة والحضور. فهي ليست تمجيداً للوحدة، ولا عقوبة ينزلها المرء بالناس حين يخيب ظنه فيهم، بل ترتيب مقصود للمسافة بين النفس وما يستدعيها. ولأن الاستدعاء الرقمي لا يملك نهاية طبيعية، يصبح على الإنسان أن يصنع نهاية أخلاقية له: هنا أتوقف، لا لأن العالم انتهى، بل لأن قدرتي على الإنصات ليست بلا حد، ولأن استمرار الاتصال قد يفسد المعنى الذي اتصلت من أجله.

نفسياً، تتعب النفس حين تنتقل بلا مهلة من خبر مفجع إلى نكتة، ومن مديح إلى اتهام، ومن رغبة في الشراء إلى نداء للاستنكار. لا تجد التجربة وقتاً تستقر فيه وتصبح فهماً، تظل انفعالاً ينتظر انفعالاً آخر. والصمت الذي نحميه ليس مجرد غياب للأصوات، بل فسحة تتيح للحزن أن يعرف اسمه، وللغضب أن يراجع حجته، وللرغبة أن تميز حاجتها من التقليد. وقد تكون الدقائق الأولى ثقيلة، لأن ما أجّلناه يعود فيها طالباً أن نصغي إليه.

أما اجتماعياً، فالمشكلة أن الغياب صار يحتاج إلى تبرير، بينما لا يحتاج الاقتحام المتكرر إلى اعتذار. نعتذر عن تأخر الرد، ولا نعتذر عن إرسال ما لا ضرورة له في أوقات الآخرين. وهكذا تتحول المجاملة إلى نظام مراقبة متبادل، يحرسه الخوف من سوء الفهم. والعزلة الناضجة تعيد التفاوض على هذا العقد الصامت: المحبة لا تقاس بسرعة الاستجابة، والوفاء لا يقتضي أن يبقى الإنسان متاحاً لكل نداء، في كل ساعة، وعلى حساب من يجلس إلى جواره.

ومن الوجهة الفلسفية، لا يحفظ المرء حريته بمجرد امتلاك خيارات كثيرة؛ يحتاج أيضاً إلى زمن لا يختار فيه تحت ضغط العرض المتلاحق. فمن لا يمهل نفسه قد يسمي الاستجابة

قراراً، ويسمي الخوف من الاستبعاد قناعة. وليس المقصود العثور على ذات خالصة لا أثر للآخرين فيها؛ فالإنسان يتكون بالعلاقات واللغة والتعلم. المقصود أن يشارك في تكوين نفسه، وألّا يسلم هذا العمل كله إلى ما تصادف أن ظهر أمامه صباحاً على الشاشة.

ولذلك يحتاج الصمت إلى برنامج قابل للعيش، لا إلى حماسة موسمية. تبدأ الخطوة الأولى بمراقبة أسبوع واحد، من غير جلد للذات: متى أفتح الهاتف بلا غرض؟ بعد أي حديث أبحث عن ضجيج؟ وأي شعور أحاول إسكاته بالتصفح؟ تكفي ملاحظات قصيرة على ورقة. ليست الغاية عدّ الدقائق وحدها، بل اكتشاف الوظيفة التي تؤديها الشاشة؛ فما كان ملاذاً من حرج معين لن يعالج بمجرد إغلاق الجهاز، بل بتعلم احتمال ذلك الحرج والتصرف حياله.

ثم يختار الإنسان موعداً يومياً صغيراً للصمت، أقرب إلى الثبات منه إلى البطولة: ربع ساعة بعد الفجر، أو قبل مغادرة العمل، أو عند نوم أهل البيت. يبتعد فيها عن الشاشة، ولا يملؤها فوراً بمادة مسموعة نافعة، كأن كل فراغ نقص يجب إصلاحه. يمشي، أو يجلس، أو ينظر من نافذة. وللمؤمن أن يصل هذه الفسحة بذكر أو دعاء، مع حفظ الفرق بين العبادة بوصفها صلة بالله، وبين اختزالها في وسيلة لتحسين المزاج.

والخطوة التالية أن يمنح الضمير مجلساً قصيراً لا محكمة مذعورة. يكتب ثلاثة أسئلة: أين خالفت اليوم ما أراه حقاً؟ من تضرر من استعجالي أو صمتي؟ وما الإصلاح الممكن غداً؟ ثم يختار فعلاً واحداً: اعتذاراً، أو تصحيح معلومة، أو رد حق، أو امتناعاً عن مشاركة ظالمة. فمراجعة النفس التي لا تنتقل إلى عمل قد تصبح دوراناً حول الذنب، كما أن التساهل الدائم قد يصير ستاراً يمنع الاعتراف به.

ولا يكفي إصلاح الداخل مع إبقاء الأبواب بلا نظام. من البرنامج أن تحدد أوقات للاطلاع والرد بحسب مقتضيات العمل والأسرة، وأن تعطل التنبيهات التي لا تحمل حاجة عاجلة، وأن يعلم المقربون طريق الوصول في الضرورة. هذه الحدود ليست بياناً عدائياً، ويمكن إعلانها ببساطة: «قد أتأخر في الرد، وإن كان الأمر عاجلاً فاتصل». وحين يكون المرء مسؤولاً عن مريض أو طفل أو عمل يتطلب الاستجابة، تعدل الخطة حول المسؤولية، لا تلغى المسؤولية باسم الخطة.

ولكيلا تتحول العزلة إلى غرفة مغلقة على الوهم، يلزمها موعد منتظم مع علاقة حقيقية: زيارة، أو خدمة، أو حديث لا تتوسطه شاشة. فالاختبار ليس مقدار ما انسحبنا، بل نوع الحضور الذي عدنا به. هل صرنا أقدر على سماع مخالفنا؟ هل قل احتياجنا إلى إحراج الآخرين لنثبت صوابنا؟ وهل أصبح في وقتنا متسع لواجب لا يراه جمهور؟ إذا زادت العزلة احتقار الناس، وجب فحصها؛ فقد تكون تحصيناً للكبرياء لا رعاية للضمير.

وقد يعترض معترض: أليس هذا ترفاً لمن يملك وقته، ودعوة إلى الانسحاب بينما يحتاج الظلم إلى أصوات، ويحتاج الناس إلى تضامن؟ ثم إن العامل الذي يحمل هاتفه طلباً لرزقه لا يستطيع أن يعامله كزائر ثقيل. والاعتراض يصيب موضعاً مهماً: ليست ظروف الناس سواء، ولا يصح أن نجعل الهدوء امتيازاً أخلاقياً يتفاخر به الميسور، أو أن نطلب ممن ضاق يومه ما نطلبه ممن يملك تنظيمه.

لكن الجواب لا يكون بإلغاء المسافة، بل بتصغيرها حتى تلائم الحياة: دقائق قبل النشر، ووجبة بلا تصفح، وتأجيل رد غاضب، وسؤال عن صحة الخبر قبل ترويجه. كما أن التضامن لا يزداد صدقاً بكثرة الظهور وحدها؛ قد يحتاج إلى اتصال مباشر، أو مال، أو شهادة منضبطة، أو عمل متواصل بعيد عن المشهد. والرضا بالقدر لا يمنع الأخذ بالأسباب، كما أن الاعتراف بحدود الطاقة لا يبيح التنصل من الحقوق. نحن نطلب صمتاً يعين على أداء الواجب، لا صمتاً يتستر به العجز المختار.

بعد أسابيع، لم تصبح مريم أقل انشغالاً، لكنها صارت أبطأ قليلاً عند زر الإرسال، وأسرع قليلاً إلى ابنتها حين تناديها. وفي مساء آخر فتحت الدرج، فرأت الرسائل تنتظر؛ تركتها لحظات، لأن سؤالاً صغيراً كان قد بدأ يتكون في داخلها، وأرادت هذه المرة أن تسمعه حتى النهاية.

الفصل الرابع: وهم السيطرة المطلقة

حين تتحول القدرة إلى واجب، لا يعود العجز ظرفاً يمر بالإنسان، بل يصير تهمة تلاحقه. هنا يكشف شعار «أنت تستطيع كل شيء» عن وجهه الآخر: إنه لا يفتح الأبواب بقدر ما يُلزمك بتفسير بقائها مغلقة. فإذا لم تبلغ، فإرادتك ناقصة؛ وإذا تعثرت، فأفكارك سلبية؛ وإذا أنهكك الطريق، قيل إنك لم ترغب في الوصول بما يكفي. هكذا تُمحى المسافة بين ما نختاره وما يقع علينا، ويُحمَّل الضمير تبعة عالم لا يديره.

ولعل أثقل ما في هذا الخطاب أنه يستعير فضيلة المثابرة ليُمرر حكماً قاسياً على المتعبين. فلا أحد ينكر أثر الاجتهاد، ولا يهون من شأن النفس حين تنهض بعد كبوة؛ لكن تحويل الاجتهاد إلى ضمان للنتائج تزوير لمعناه. للعمل أسباب وثمرات مرجوة، وليس عقداً يُلزم الحياة بأن تسلّمنا ما طلبناه في الموعد الذي حددناه.

تجلس امرأة عند آخر الليل أمام طلب توظيف أعادت صياغته مرات. لديها شهادة، وخبرة، وطفل نام بعد حمى، وأم تحتاج إلى رعاية. تصلها عبارة عابرة على هاتفها: «لا أعذار؛ الناجح يصنع وقته». تنظر إلى الساعة، ثم إلى باب الغرفة. ليست حاجتها في تلك اللحظة إلى من يوقظ إرادتها؛ فقد استهلكت من الإرادة ما لا تراه الصورة الأنيقة التي حملت العبارة. حاجتها إلى فرصة عادلة، وساعات لا تتنازعها الضرورات، وإلى ألا يُضاف إلى تعبها اتهام بالتقصير.

لا تثبت هذه الصورة أن السعي عبث، بل تكشف ما يسقط من حساب الواعظ بالقدرة المطلقة: أن الإرادة تعمل داخل شروط، وأن الشروط تتفاوت بين الناس. المال، والصحة، والأمان، والوقت، وسند الآخرين، ليست تفاصيل هامشية حول البطولة الفردية؛ إنها جزء من إمكان الفعل نفسه. ومن الظلم أن نقيس الجهود بالحصيلة وحدها، ثم نمنح الفائزين شهادة استحقاق أخلاقي، ونترك للخاسرين واجب الاعتذار.

وفي الإيمان متسع يحفظ للإنسان مسؤوليته من غير أن يؤلّهه. يأخذ بالأسباب، ويحاسب نفسه على ما فرّط فيه، ولا يدّعي ملك العواقب. والتسليم لله ليس إذناً بالكسل، كما أن الرضا بالقدر لا يمنع طلب الإنصاف أو تغيير الممكن. إنما يردّ كل شيء إلى حجمه: سعي محدود مأمور به، ونتيجة ليست كلها في اليد.

ولذلك تحتاج الإرادة، كي تبقى نافعة، إلى معرفة حدودها. فقد يكون القرار الشجاع مواصلة الطريق، وقد يكون تعديل الغاية، أو طلب العون، أو التوقف عن استنزاف النفس في باب

لا يُفتح بمزيد من الطرق. ليست كرامة الإنسان رهينة قدرته على كل شيء؛ ومن حقه أن يبذل ما يستطيع، ثم يقول، بلا خزي ولا تبرير طويل: هذا ما اتسع له وسعي.
أقسى ما يفعله وهم السيطرة أنه لا يكتفي بأن يعد الإنسان بمستقبل مطيع، بل يعود، حين تنكسر الوعود، ليجلس في مقعد القاضي. عندئذ يصبح الفقد دليلاً على تقصير المحب، والمرض قرينة على خلل في التفكير، وضيق الرزق اعترافاً خفياً بأن صاحبه لم يُحسن الرغبة في الغنى. هكذا تُزوَّر العلاقة بين الفعل والعاقبة: ما دام المرء مسؤولاً عن شيء، يُطلب منه أن يكون قادراً على كل شيء؛ وما دامت له إرادة، يُفترض أن العالم كله قابل للانقياد لها.
في ممر مستشفى، تجلس امرأة تحمل ملف أمها بين يديها. تعرف مواعيد الدواء، وتحفظ أسماء الفحوص، وقد استنفدت ما تملك من مال وإجازات وأسئلة. ومع ذلك، لا تستطيع أن تمنح الجسد المنهك استجابة يأباها. ليست هذه المسافة بين عنايتها والنتيجة فراغاً أخلاقياً تُملؤه الملامة؛ إنها الحد الذي تقف عنده قدرتها، ولا تقف عنده محبتها. قد تراجع قراراً اتخذته، وقد تتعلم مما فاتها، لكن المراجعة شيء، وادعاء أنها كانت تملك منع كل ألم شيء آخر. وليس من العدل أن يُحمَّل القلب، فوق وجعه، عبء البرهنة على أنه أحب بما يكفي.
تقتضي المسؤولية تمييز ما يدخل في الوسع مما لا يدخل فيه، لا محو هذا الفرق. لنا أن نسعى في الرزق، وأن نتعلم ونتقن ونطرق الأبواب، لكننا لا نضع وحدنا قواعد السوق، ولا نختار جميع الظروف التي تستقبل سعينا. ولنا أن نحفظ الصحة بما نستطيع، دون أن نصير أصحاب عهد على أجسادنا بألا تمرض. وبين الإهمال الذي يستتر بالقدر، والوهم الذي يستولي على مقام القدرة، مساحة واسعة للعمل الأمين: أن تبذل ما تقدر عليه، وأن تحاسب نفسك بقدر علمك ووسعك، لا بقدر ما انكشف بعد فوات الأوان.
ولهذا لا يصح أن تتحول الدعوة إلى الأمل إلى مطالبة المتألم بتبرئة العالم من قسوته. قد يحتاج الإنسان إلى معونة، أو علاج، أو حق يُرد إليه، لا إلى خطاب يطالبه بإصلاح داخله حتى تلين له الظروف. وفي الإصرار على تفسير كل تعثر بعطب شخصي إعفاء مريح للمؤسسات الظالمة والعلاقات المستنزفة من مسؤوليتها، كأن الفقير وحده صانع فقره، وكأن المنكوب قد اختار موضع سقوطه.
الإيمان بالقدر لا يلغي السؤال عما يمكن إصلاحه، كما أن الأخذ بالأسباب لا يمنح صاحبه ضماناً للنجاة. والتوكل يحرر العمل من ادعاء امتلاك خاتمته: تؤدي الأمانة، ونطلب الفرج، ونحزن حين يقع ما نحزن له، من غير أن نجعل الحزن خصومة مع الإيمان. فالمرء يُسأل عما تعمَّد وضيَّع واستطاع، لا عن تدبير الوجود كله؛ والاعتراف بهذا الحد يرد إلى المسؤولية معناها الممكن، وإلى الإنسان حقه في ألا يكون متهماً بكل ما أصابه.

ليست المشكلة في أن يخطط الإنسان لغده، بل في أن يُطالَب بتوقيع ضمانٍ على غدٍ لم يأتِ بعد. فالتخطيط معرفةٌ بما يمكن إعداده، لا شهادةُ ملكيةٍ لما سيقع؛ والعملُ بذلٌ للوسع، لا عقدُ إلزامٍ للحياة كي تردّ إلينا ما دفعناه بالصورة التي اشتهيناها. وبين الأمرين تقوم مساحة لا يملؤها الكسل، ولا يسدّها الادعاء: مساحة الإيمان بأن للعبد سعيه، وأن تدبير الله أوسع من حسابه.

يعرف الزارع هذا الفرق حين يراجع موعد البذر، ويفحص التربة، ويصلح مجرى الماء. لا يترك أرضه مهملةً ثم يسمّي إهماله توكلاً، لكنه، بعد إحكام ما يستطيع، لا يملك أن يأمر السماء. وإذا قلّ المحصول، لم يكن من العدل أن تُمحى معرفته وتعبه، أو أن يُفتَّش في قلبه عن نقصٍ يُفسِّر كل خسارة. قد يخطئ في تقدير، وقد يُصاب بما لم يكن في وسعه دفعه؛ والتمييز بينهما واجبٌ لفهم ما جرى، لا حيلةٌ لتبرئة النفس من كل مسؤولية.

غير أن تجارة الوعد السريع تعيش على إلغاء هذا التمييز. إنها تبيع طريقةً محددة، ثم توسّع دعواها حتى تصبح قانوناً للوجود: افعل كذا، تنل كذا، في مدةٍ معلومة. فإذا أخلف الواقع موعد الإعلان، انتقلت التهمة من الوعد إلى الموعود؛ لم ترغب بما يكفي، لم تثق بما يكفي، لم تتخلّص من شكّك. وهكذا يُحمَّل المتعب ثمن السلعة وثمن فشلها، ويُعفى البائع من مراجعة بضاعته.

والأشد إيلاماً أن تُستعار لغة الإيمان لتزكية هذا الحساب، فيُجعل حسن الظن بالله مرادفاً لتوقّع نتيجةٍ بعينها، ويُقاس صدق التوكل بسرعة الوصول إليها. لكن حسن الظن لا يمنحنا حقّ تعيين ما يجب أن يقع، والدعاء ليس حيلةً لإحكام السيطرة على المقادير. نرجو، ونسأل، ونسعى؛ ولا نجعل من رجائنا حكماً على حكمة الله، ولا من تأخّر المراد دليلاً على سقوطنا من رحمته.

وحين يستقر هذا المعنى، يتغيّر شكل الخطة نفسها. تصبح قابلةً للمراجعة، وفيها فسحةٌ للتأخير، وبدائلُ عند تعذّر الطريق، وحدٌّ للخسارة يمكن احتماله. لا يعود الاحتياط سوء ظن، ولا طلب المشورة اعترافاً بالعجز، ولا تعديل الوجهة خيانةً للحلم. إن الاعتراف بحدود القدرة يجعل استعمالها أدقّ، ويمنع تبديدها في معركةٍ خاسرة لإثبات أننا بلا حدود.

لهذا لا ينبغي أن يكون البديل من وهم السيطرة استقالةً من الفعل، بل تحرّراً من التألّه الخفي في فهمه. نتحمّل مسؤولية القرار، ونتعلّم من أثره، وننصف ما أحسنّا وما أسأنا؛ ثم نكفّ عن محاكمة أنفسنا على كل ما لم نملكه. تلك طمأنينة لا تعدنا بأن الطريق سيطيعنا، وإنما تعيننا على السير فيه بضميرٍ يقظ، وعملٍ جادّ، وقلبٍ متوكّل.

دائرة القدرة وما خارجها

ليست حدود القدرة جداراً يحبس الإنسان، بل هي العلامات التي تمنعه من إنفاق عمره في حراسة ما لا يملك. فثمة فرق بين أن تبذل السبب، وأن تجعل نفسك ضامناً للنتيجة؛ بين أن تُحسن القول، وأن تشترط على الآخرين حسن الفهم؛ بين أن تؤدي حقك في السعي، وأن تحاكم ضميرك كلما تأخر الوصول. وحين تختلط هذه المقامات، تتحول المسؤولية من أمانة محدودة إلى مطالبة لا تنتهي، كأن على المرء أن يدير العالم كي يستحق الراحة.

يخرج رجل من مقابلة عمل وقد أعدّ لها أياماً: عرف ما يحتاج إليه، ورتّب خبرته، وأجاب بما يستطيع من صدق ووضوح. ثم يمضي المساء وهو يعيد كل كلمة، متوهماً أن العبارة التي لم يقلها كانت المفتاح الوحيد للباب. لا يعرف أن القرار قد تحكمه ميزانية أُغلقت، أو أولوية تبدلت، أو محاباة لا شأن لكفاءته بها. وليس المطلوب أن يعفي نفسه من المراجعة، بل أن يراجع ما وقع تحت يده، وألا يختلق لنفسه سلطاناً على الغائب كي يجد تهمة يعاقب بها روحه.

هنا تنكشف قسوة الخطاب الذي يبيع السيطرة في هيئة تفاؤل: يمنح الإنسان وعداً لا يملكه، ثم يطالبه بثمن إخفاق الوعد. فإذا لم تتحقق النتيجة، اتهمه بضعف الرغبة أو نقص الثقة. وهكذا تُمحى الظروف، وتُستر اختلالات الفرص، ويُختزل تعقيد الحياة في مزاج فرد واحد. أما الإيمان فلا يجعل المرء إلهاً صغيراً لأقداره؛ يكلّفه بما يستطيع، ويعلّمه أن التوكل ليس ترك الأسباب، كما أن الأخذ بالأسباب ليس امتلاك الغيب.

العودة إلى الذات

والعودة إلى الذات، بعد ذلك، ليست انسحاباً من الناس ولا انشغالاً متصلاً بتفقد المشاعر. إنها عودة إلى موضع المسؤولية الصحيح: ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟ وأي حق أضيعه وأنا أتشاجر مع ما انقضى؟ وأي واجب أؤجله انتظاراً لطمأنينة كاملة لن تأتي؟

في هذا الموضع يصبح الاعتراف بالعجز معرفة نافعة، لا حكماً بانعدام القيمة. يمكن للمرء أن يصلح خطأه، ويطلب العون، ويغيّر طريقه، ويعترض على ظلم وقع عليه، من غير أن يَعِد نفسه بأن كل جهد سيُكافأ في الموعد الذي اختاره. وله أن يحزن دون أن يعدّ حزنه اعتراضاً على القدر، وأن يستريح دون أن يجعل الراحة شهادة هزيمة.

لا يعود إلى ذاته ليجد فيها تفسيراً لكل شيء، بل ليكف عن تحميلها كل شيء. يسترد منها قصده، ويصون ما بقي من طاقته، ثم يمضي: أصدق في السعي، وأرفق بنفسه، وأقدر على حمل نصيبه من الحياة دون ادعاء حملها كلها.

حين نجعل من أنفسنا سبباً لكل ما يحدث

بعد انفضاض العزاء، جلست مريم في المطبخ أمام هاتف أخيها القديم. كان قد اتصل بها قبل الحادث بسبع عشرة دقيقة، ولم تجبه؛ كانت تغسل ابنتها الصغيرة، والهاتف في الغرفة الأخرى. لم تعرف لماذا اتصل، لكن السؤال الذي استقر فيها لم يكن: ماذا أراد؟ بل: ماذا لو أجبت؟ تخيلت أنها كانت ستطيل الحديث، فيتأخر عن الطريق، أو يسمع في صوتها ما يدعوه إلى الرجوع. لم يكن بين يديها دليل على شيء من ذلك، ومع هذا أخذ الاحتمال هيئة حكم، وصارت المكالمة الفائتة، في وجدانها، فعلاً ارتكبته.

وكان الناس يزيدون حملها وهم يريدون التخفيف عنها. قال أحدهم: «لو كنت مكانك لما تركت الهاتف بعيداً». وقال آخر: «ربما أراد أن يوصيك بشيء». أما هي فلم تتذكر مئات المرات التي أجابته فيها ولم يتغير العالم، ولا المرات التي تأخرت فيها مكالمة ثم مضى النهار عادياً. لقد انتخب الحزن واقعة واحدة، ووضع حولها مصابيحه كلها. وفي الليل، حين هدأ البيت، لم تسأل نفسها كيف تحتمل الفقد، بل كيف تغفر لنفسها ما لم يثبت أنها فعلته.

في مثل هذه اللحظات، قد يكون اتهام النفس محاولة مؤلمة لإنقاذ صورة العالم. فالقول: «حدث هذا لأنني قصّرت» يمنح الفاجعة سبباً يمكن الإمساك به، وإن كان ذلك السبب ظالماً. أما الاعتراف بأن الإنسان قد يبذل ما يستطيع ثم يفاجأ بما لا يستطيع دفعه، فيتركه أمام هشاشته مكشوفاً. ولهذا قد نفضّل عذاب الذنب على ارتجاف العجز؛ الذنب يوهمنا بأن باب النجاة كان في أيدينا، بينما العجز يذكّرنا بأن أيدينا لا تبلغ كل الأبواب.

ولا يقع هذا التحول دائماً في الوعي الصريح. فقد يقول المرء إنه يعلم أن الأمر ليس بيده، ثم يعيد محاكمة نفسه كل مساء. إن العقل، بعد وقوع الحدث، يرتب العلامات القديمة ترتيباً لم يكن متاحاً قبل وقوعه. النظرة العابرة تصبح نذيراً، والصمت يصبح استغاثة، والتعب المعتاد يصير خبراً كان يجب فهمه. هكذا نحاكم إنسان الأمس بمعرفة إنسان اليوم، ونطالبه بأن يكون قد رأى النهاية وهو لا يملك إلا أول السطر. وليس العدل أن نزن القرار بما عرفناه بعده، بل بما كان متاحاً عند اتخاذه.

ويبدأ الاستعداد لهذا الحمل أحياناً قبل المصائب بسنوات طويلة. يكبر طفل وهو يسمع أن غضب أبيه نتيجة ضجيجه، وأن حزن أمه سببه انشغاله عنها، وأن استقرار البيت مرهون بحسن

تصرفه. فلا يتعلم مراعاة الآخرين فحسب، بل يتعلم أنه جهاز ضبط المناخ العاطفي في المنزل. يكبر، وتتغير الوجوه، وتبقى الوظيفة: عليه أن يمنع الخلاف، ويستبق الخيبة، ويقرأ ما لم يُقل. وحين يفشل في إرضاء الجميع لا يراجع استحالة المهمة، بل يراجع قيمته هو.

ثم تأتي الحياة الاجتماعية فتكافئ هذا الاستعداد، وتسميه أحياناً نضجاً أو وفاءً. يُمدح الموظف الذي يسد كل ثغرة، حتى تصبح الثغرات واجبه الدائم. وتُمدح المرأة التي لا تطلب شيئاً، حتى يبدو طلبها الطبيعي خيانة لصورتها. ويُرفع الابن البار إلى مقام لا يحق له فيه أن يتعب أو يختلف أو يعجز عن التوفيق بين المطالب. هنا لا تعود المسؤولية وصفاً لفعل محدد، بل تتحول إلى هوية: أنا الذي يجب ألا ينقص بوجوده شيء. وأخطر الهويات تلك التي لا تسمح لصاحبها بأن يكون بشراً.

ولهذا الإفراط منفعة عند غير صاحبه أيضاً. فحين يحمل فرد واحد وزر تعطل المؤسسة، ترتاح المؤسسة من سؤال تنظيمها. وحين تفسر أسرة كل اضطراب بتقصير شخص بعينه، تتجنب النظر في توزيع الأعباء وطريقة الكلام وحدود المطالب. وليس ضرورياً أن يدبر أحد هذا الظلم؛ يكفي أن يجد الجميع شخصاً يسبقهم إلى الاعتذار. وبمرور الوقت، يصير اعتذاره جزءاً من نظام المكان، ويبدو امتناعه عنه اضطراباً في النظام. إن النفس التي تتهم ذاتها بلا حد قد تصبح، من حيث لا تقصد، ستاراً يحجب مسؤوليات الآخرين.

وعلى المستوى الفلسفي، نخلط كثيراً بين الصلة والسبب، وبين القدرة والواجب، وبين المشاركة وامتلاك النتيجة. قد تكون لي صلة بواقعة من غير أن أكون سببها، وقد أستطيع المساعدة من غير أن أقدر على الإنقاذ، وقد أؤدي واجبي وتأتي النتيجة على خلاف ما رجوت. المسؤولية الأخلاقية تحتاج إلى فعل أو ترك يمكن نسبته إليّ، وإلى قدر من العلم والاستطاعة، لا إلى مجرد وجودي قرب الألم. ولو صار كل ما كان يمكن تخيله واجباً، لما بقي إنسان بريئاً، إذ يمكن دائماً اختراع خطوة إضافية كان لعلها ستغير شيئاً.

ولا يناقض هذا الإيمان بالقدر، بل يمنح الأخذ بالأسباب تواضعه الضروري. فالإيمان لا يعفينا من السؤال عن تقصيرنا، لكنه لا يجعلنا شركاء في علم الغيب، ولا يطالبنا بامتلاك مصائر الخلق. وقد يظن المرء أن شدة لومه لنفسه دليل على يقظة ضميره، مع أن الضمير يحتاج إلى العدل كما يحتاج إلى الحساسية. ليس من التقوى أن ننسب إلى أنفسنا سلطاناً لم يُعط لنا، ولا من التوكل أن نترك ما نستطيع ثم نتستر بالعجز. وبين الادعاءين مساحة العمل الإنساني: سعي صادق، ومراجعة منصفة، وقبول بأن النتائج أوسع من تدبيرنا.

قد يعترض معترض: أليس هذا الكلام باباً مريحاً للتنصل؟ كم من مهمل يقول إن الظروف أقوى منه، وكم من مؤذٍ يحتمي بعبارة «لم أقصد»! والاعتراض وجيه؛ فليس كل شعور

بالذنب وهماً، وليست كل حدود نعلنها بريئة. لكن الجواب ليس في تحميل النفس كل شيء، بل في جعل المحاسبة أدق. ماذا فعلت تحديداً؟ ماذا كنت أعرف؟ ما الذي كان في وسعي دون افتراض علم مستحيل أو طاقة بلا نهاية؟ ومن غيري كان مسؤولاً؟ وما الإصلاح الممكن الآن؟ هذه الأسئلة أصرم من الشتيمة الداخلية؛ لأنها تقود إلى اعتذار أو تعويض أو تغيير، لا إلى إقامة دائمة في قفص الاتهام.

فمن قصّر في رعاية أمانة عليه أن يعترف، لكن الاعتراف لا يستلزم اختزال حياته كلها في تقصيره. ومن لم يقصّر يحتاج إلى شجاعة أخرى: أن يحتمل براءته من دون أن يفهمها خيانة لمن تألموا. ربما كان أصعب ما تواجهه مريم أن تتوقف عن معاقبة نفسها، لأنها تخشى أن يعني ذلك أنها أحبت أخاها أقل. وقد تحتاج زمناً حتى تكتشف أن الحزن لا يشترط مذنباً كي يكون وفياً، وأنها تستطيع أن تذكر ضحكته، لا المكالمة وحدها؛ فالمحبة التي بدأت قبل ذلك الهاتف لا ينبغي أن يبقى بابها الوحيد رقماً لم يُجب عنه.

أن تعمل بيديك، وتُفلت النتيجة من قلبك

في الليلة التي سبقت تسليم أبواب المدرسة، ظلّ يوسف يتنقّل بين منضدة النجارة وهاتفه. كان المطر قد اشتدّ، والطريق المؤدي إلى القرية مهدّداً بالانقطاع، والمبلغ المنتظر من العمل يكاد يكون مورد المشغل الوحيد لذلك الشهر. أعاد الاتصال بالسائق، وفحص الأغطية، ثم أخذ يقيس باباً سبق أن قاسه ثلاث مرات. عند منتصف الليل، دخل عليه أبوه، فرأى نشارة الخشب على كتفيه والضيق في حركته. قال يوسف: «فعلت كل شيء، ولا أعرف ماذا أفعل أيضاً». لم يقل الأب إن الطريق سيفتح، ولم يعده بأن الخسارة لن تقع. سأل عن تثبيت الحمولة، وأجرة العمال، والموعد البديل؛ ثم قال: «إذا استوفيت ما تستطيع، فلا تجعل ما لا تستطيع عملاً آخر لا تنتهي منه».

لم ينم يوسف مطمئناً تماماً؛ كان القلق يعود كلما ضرب المطر سقف المشغل. لكنه أرسل إلى مدير المدرسة يشرح الاحتمال القائم، وحوّل أجور العمال قبل أن يصله ثمن الأبواب، ووضع خطة لنقلها على دفعتين إن تعذّر مرور الشاحنة الكبيرة. ثم أطفأ المصابيح. لم يكن إطفاؤها إعلاناً بأن الأمور أصبحت مضمونة، بل اعترافاً بأن بقاءه مستيقظاً لن يزيد الخشب صلابة ولا يرفع الماء عن الطريق. وفي الصباح تأخر التسليم، واضطر إلى استئجار مركبة إضافية. لم تأتِ النجاة على هيئة ربح كامل، لكن الرجل استطاع أن يعالج الخسارة من غير أن يحوّلها إلى تهمة شاملة ضد نفسه أو خصومة مع القدر.

هنا يبدأ التوكل بوصفه عملاً داخلياً، لا كلمة تضاف إلى آخر الحساب. فليس أصعب ما يواجه الإنسان أن يبذل جهده فحسب؛ الأصعب أحياناً أن يمنع جهده من التحول إلى مطالبة مستترة بأن يطيعه الوجود. قد يعمل المرء بإخلاص، ثم يشعر أن إخلاصه يمنحه حقاً مضموناً في النجاح، وأن حسن نيته ينبغي أن يعصمه من سوء العاقبة. والتوكل يهذّب هذه المطالبة دون أن ينتقص من قيمة السعي: لك أن تحسن العمل، وليس لك أن تجعل إحسانك عقداً يلزم الغيب بما تشتهي.

وتتصل بذلك مسألة دقيقة في النفس: التمييز بين الاهتمام بالمسؤولية والتعلّق القهري بمراقبتها. الاهتمام ينتج فعلاً نافعاً، مراجعةً تكشف خطأً، أو سؤالاً يستدرك نقصاً، أو استعداداً يخفف ضرراً. أما المراقبة التي استنفدت فائدتها فتستهلك صاحبها، وتوهمه أن انقباضه مساهمة إضافية في حماية ما يحب. كأن الأب الذي لا يكف عن تخيّل مصائب أبنائه يحبهم أكثر، وكأن العامل الذي يعاقب نفسه على كل احتمال أكثر أمانة. والتوكل لا يطلب إخماد المحبة أو إهمال الحذر، وإنما يفك الارتباط بين صدق العناية واستمرار العذاب.

لذلك لا يكون هذا العمل الداخلي سهلاً ولا فورياً. قد يعرف الإنسان حدود قدرته بعقله، ثم يظل قلبه يفاوضها. يحتاج إلى أن يراجع السؤال نفسه: هل أمامي خطوة نافعة لم أتخذها، أم أنني أعيد الدوران حول باب مغلق؟ فإذا بقيت خطوة أخذها، ولو كانت اعتذاراً أو طلب معونة أو اعترافاً بجهل. وإذا لم تبقَ، تعلّم أن يكفّ دون احتقار لنفسه. وليس الكف هنا تركاً للعمل، بل امتناع عن اختراع عمل زائف من القلق. وقد يعود الخوف بعد ذلك؛ فلا يصير عوده دليلاً قاطعاً على فساد التوكل، ولا مناسبة لمحاكمة الإيمان.

غير أن النفس لا تتعلم هذه العلاقة بالعالم في عزلة عن المجتمع. ففي بعض البيئات يُمدح المنهك لمجرد إنهاكه، ويُرتاب فيمن يعرف متى يستريح، حتى تغدو القدرة على الاحتمال بديلاً من عدالة توزيع الأعباء. وفي بيئات أخرى تُستعمل لغة التوكل لتجميل الإهمال: لا تُصان الآلة، ولا يُدرَّب العامل، ولا تُراجع إجراءات السلامة، ثم يُستدعى القدر بعد وقوع الضرر كأنه يعفي البشر من السؤال. وبين تمجيد الإنهاك وتقديس التقصير تضيع حقيقة المسؤولية؛ إذ يُطلب من الضعيف أن يحمل ما لا يطيق، ويُسمح للقادر أن يترك ما يطيق.

والتوكل الذي يحفظ للضمير يقظته يرفض هذا الخلط. فلا يجوز أن يُطلب من العامل أن يطمئن إلى الله كي يقبل مكاناً غير آمن، ولا من المريض أن يترك طلب العلاج ليثبت حسن ظنه، ولا من صاحب حق أن يسكت عن الظلم حتى يبدو راضياً. الإيمان بالقدر لا يجعل المطالبة بالإصلاح اعتراضاً على الله؛ فالسعي إلى دفع الضرر نفسه فعل يجري في

عالم الأسباب. ومن أخطر ما يصيب المعاني الدينية أن تُنقل من موضع تزكية الإنسان إلى موضع تعطيل مطالبته المشروعة.

وعلى المستوى الفلسفي، يصحّح التوكل صورة الفاعل البشري. فالإنسان ليس آلة تحرّكها الظروف بلا اختيار، وليس إرادة منفردة تصنع العالم من العدم. إنه يعمل داخل شروط لم يختر أكثرها: زمنه، وجسده، وأحوال بلده، وقرارات الآخرين. وله مع ذلك مساحة حقيقية يسأل عنها، تتسع أحياناً وتضيق أحياناً. ومن الحكمة ألا ينسب إلى نفسه ما لم يصنع، وألا يتنصل مما صنع. بهذا المعنى، يحول التوكل دون تضخم الذات ودون محوها معاً؛ يضعها في مقام الأمانة، لا في مقام السيادة على المصائر.

ومن هنا أيضاً يتغير معنى النجاح. ليس كل إخفاق شهادة على سوء التدبير، كما أن كل ربح ليس تزكية لطريق صاحبه. قد يحسن إنسان الاختيار ثم تضره ظروف عامة، وقد يسيء آخر ثم تحمله مصادفة مواتية. ولو جعلنا النتيجة وحدها قاضياً على الفعل، لأصبح المحظوظ حكيماً بالضرورة، والمنكوب مذنباً بالضرورة. التوكل يتيح مراجعة أكثر عدلاً: ماذا عرفت وقت القرار؟ ماذا أهملت؟ ماذا كان في وسعك؟ ثم يترك للنتيجة وزنها الواقعي، من غير أن يمنحها حق إصدار الحكم الأخير على قيمة الإنسان.

وقد يعترض معترض: أليست هذه اللغة باباً مريحاً لتبرير الفشل؟ يستطيع كل مقصر أن يقول: فعلت ما عليّ، والباقي على الله. ثم إن الخوف من الخسارة قد يكون هو ما يدفع الناس إلى الإتقان؛ فإذا خففناه، أفلا نفقد حافزاً ضرورياً؟

والجواب أن التوكل لا يثبت بمجرد دعواه، بل يظهر في علاقة صاحبه بالأسباب وبالتصحيح. من يتوكل حقاً لا يأنف من مراجعة خطئه، ولا يهرب من سؤال أهل الخبرة، ولا يستر تقصيره بعبارة جليلة. وهو لا يشترط زوال الخوف حتى يعمل؛ إنما يمنع الخوف من أن يصبح صاحب الأمر كله. ثمة فرق بين خوف ينبهك إلى خلل، وخوف يطالبك باستحالة الخلل. الأول يمكن الإصغاء إليه، والثاني لا يشبع مهما أطعمته من الاحتياط.

كما أن الدافع إلى الإتقان لا ينحصر في الفزع. يمكن أن يعمل الإنسان حباً لصنعته، ووفاءً لوعده، وطلباً للرزق الحلال، ورحمةً بمن يتوقف أمنهم على أمانته. وهذه دوافع تحتاج إلى تربية ومؤسسات تنصفها، لا إلى مواعظ وحدها. حين يجد العامل أن إتقانه محترم، وأن خطأه قابل للتصحيح، وأن ضعفه لا يستدعي إذلاله، يصير أقدر على بذل جهد صادق لا يستنزفه التظاهر بالعصمة. ويصبح التوكل قوة تسمح له بالاستمرار، لا ستاراً ينسحب خلفه.

وفي مساء اليوم التالي، عاد يوسف إلى مشغله ليصلح مفصلة اعوجّت أثناء النقل؛ كان يستطيع أن يسميها خسارة أخرى، لكنه وضعها تحت الضوء، وأمسك بأداته، وبقي في قلبه متسع لما لم يعرفه بعد.

حين لا يفتح الباب بمفتاحنا

في صباح اليوم الثالث بعد دفن أبيه، فتح سامر دكان النجارة متأخراً. بقيت نظارة الأب على الرف، وإلى جوارها قلم قصير كان يرفض رميه ما دام فيه ما يكتب. حرّك سامر النظارة ليضع مكانها دفتر الحسابات، ثم أعادها إلى موضعها. لم يكن مستعداً لأن تصبح المساحة التي تشغلها متاحة. جلس ينتظر اتصال رجل وعده بسداد ثمن أبواب تسلّمها منذ شهرين، وبين كل نظرة إلى الهاتف وأخرى كان يفتح رسالة قديمة تخص طلب عمل قدّمه ابنه. في ذلك الصباح اجتمعت على الطاولة ثلاثة أشياء لا يستجيب أيٌّ منها لإرادته: غائب لن يعود، ومال تأخر، ومستقبل لم يرسل جوابه.

دخل جار يعزّيه، ثم قال وهو يتأمل الآلات الساكنة: «شدّ حيلك، كل شيء يتعوّض». شكره سامر، لكنه بعد انصرافه أمسك قطعة خشب وأخذ يصقلها بعنف، حتى أفسد طرفها. لم يكن غاضباً من الخشب، ولا من الجار وحده؛ كان غاضباً من العجز الذي لا يجد عملاً يصلحه. اعتاد طوال عمره أن يقيس، ثم يقطع، ثم يجمع الأجزاء فتستقيم. أما الآن فقد كان يحسن كل ما يعرف، ولا يستقيم يومه. وحين رن الهاتف أخيراً، كانت شركة الاتصالات تعرض عليه باقة جديدة.

في مثل هذه اللحظات لا نتعلم النفس حدودها على هيئة فكرة مرتبة، بل نتلقاها في اضطراب التفاصيل. تعرف أن الموت حق، لكنها تفاجأ بأن المعرفة لم تهيئ اليد للكف عن إعداد كوب زائد. وتعرف أن الأرزاق ليست بمواعيد تطلبها، لكنها تجد في تأخر مبلغ مستحق ما يهدد شعورها بأنها قادرة على إعالة بيتها. ليست المشكلة دائماً جهلاً بحقائق الحياة؛ قد تكون المسافة الشاقة بين حقيقة نقبلها بلساننا، وحياة داخلية لم تتدرب بعد على السكن إلى جوارها.

للفقد خصوصية قاسية: إنه لا يسلبنا شخصاً فحسب، بل يسلبنا أفعالاً كنا نصير بها أنفسنا. من سيطلب مشورتنا بتلك الطريقة؟ ولمن نحمل الخبر الصغير الذي لا يحتمل الانتظار؟ ينكشف أن جانباً من هويتنا كان قائماً في علاقة، لا في ملكية فردية مغلقة. لذلك لا يكون الحزن خللاً ينبغي استعجال محوه، ولا يكون الوفاء إبقاء الجرح مفتوحاً عمداً. قد يكون تعلّم الحد

هنا أن نسمح للمحبة بأن تتغير صورتها، من صحبة يومية إلى دعاء وذكر وأثر، من غير ادعاء أن التحول سهل أو مكتمل.
وقد تتحول مراجعة الماضي إلى محاولة متأخرة لاسترداد السيطرة: لو اتصلت مبكراً، لو ألححت عليه أن يستريح، لو اخترت غير ذلك اليوم. بعض هذه المراجعة يعلّمنا مسؤولية حقيقية، لكن بعضها يمنحنا سلطة متخيلة على ما وقع. فاتهام النفس قد يبدو، على قسوته، أهون من الإقرار بأننا لم نكن نملك منع النهاية. والمواساة الأمينة لا تسقط المسؤولية حيث تثبت، ولا تجعل المحبة دليلاً على قدرة لم تكن موجودة؛ إنها تفسح مكاناً للحزن من دون أن تحوّله إلى محكمة لا ترفع جلستها.
أما الانتظار، فيمتحننا بطريقة أخرى؛ يبقي الباب محتملاً، ثم يمنعنا من معرفة موعد انفتاحه. في الفقد غياب معلوم، وفي الانتظار احتمالات تتناوب على استنزاف اليوم. يعيد المرء قراءة العبارة نفسها، ويحسب ساعات الصمت، ويتخيل أن مزيداً من الترقب يقرّب الجواب. هنا يقع التباس دقيق بين المتابعة النافعة والمراقبة التي تأكل صاحبها. إرسال الوثيقة الناقصة فعل، أما تفقد البريد خمسين مرة فلا يضيف إلى الطلب شيئاً، وإن أوهم صاحبه بأنه لا يزال يمسك بخيط النتيجة.
ولا يصح أن نجعل الانتظار مسألة نفسية خالصة. فهناك من ينتظر جواباً وهو آمن المسكن، وهناك من تآكل مدخراته مع كل أسبوع صامت. والمؤسسات التي تؤخر الأجور والحقوق، وتترك الناس بلا موعد أو تفسير، لا تؤجل معاملات فحسب؛ إنها تنقل كلفة اضطرابها إلى أعصاب البيوت وعلاقاتها. ثم قد يُطلب من المتضرر أن يكون هادئاً، كأن توتره نقص أخلاقي منفصل عن سببه. تعليم النفس حدودها لا يعفي صاحب السلطة من واجبه في تقليل الغموض وإنصاف المنتظرين.
وفي الرزق يشتد الأمر لأن المال يتصل بالخبز والكرامة معاً. قد يسمع الإنسان سؤالاً بسيطاً عن عمله فيشعر أنه يُسأل عن قيمته كلها. وحين تتأخر ثمرة سعيه، لا يخشى الحاجة وحدها، يخشى أيضاً نظرات تجعل التعثر برهاناً على الكسل أو قلة التدبير. هكذا يتسع وهم السيطرة من اعتقاد شخصي إلى ميزان اجتماعي جائر: ما دام الناجح ينسب كل نجاحه إلى نفسه، سيسهل عليه أن ينسب كل إخفاق إلى صاحبه، متناسياً تفاوت الفرص وشبكات العون وتقلب الأسواق والظروف التي لا يختارها أحد.
واحترام الإيمان يقتضي هنا دقة لا تسكيناً لفظياً. الإيمان بالقدر لا يحوّل الأجر المحتجز إلى حق لصاحب العمل، والتوكل لا يلغي الحساب والتعلم والمطالبة. كما أن اتساع الرزق ليس شهادة على تفوق صاحبه في المنزلة عند الله، وضيقَه ليس حكماً على خفاء سريرته. يستطيع

المرء أن يسعى بجد، ويراجع تقصيره، ويطلب حقه، ثم يقر بأن النتيجة ليست صناعة يده وحدها. هذا الإقرار يحرر العمل من ادعاء لا يطيقه، ولا يحرر العامل من مسؤوليته.
فلسفياً، تكشف هذه المواقف أن حدود الإنسان ليست جداراً واحداً يعرف مكانه ثم يستريح. بعضها ثابت لا يُرد، وبعضها قابل للتوسيع بالمعرفة والتعاون، وبعضها لا نعرف طبيعته إلا بالمحاولة. لذلك لا تكون الحكمة في ترديد «لا أملك شيئاً»، مثلما لا تكون في إعلان «أستطيع كل شيء». إنها في تمييز متجدد: ما الذي يطلب مني فعلاً الآن؟ وما الذي أضيفه إلى عذابي حين أطالب نفسي بضمانه؟ قد يكون واجبي اليوم إجراء مكالمة صعبة، لا انتزاع جوابها؛ ومرافقة حزين، لا إزالة حزنه.
وقد يعترض معترض: أليس هذا الكلام تدريباً على القبول بما ينبغي تغييره؟ ألا يستريح الظالم حين يسمع المظلوم أن يتعلم حدوده؟ الاعتراض وجيه، لأن لغة الصبر قد تُستعمل لإسكات المطالبة، ولأن الدعوة إلى الرضا تصبح مؤذية حين ينطق بها المستفيد من حرمان غيره. لكن الفارق يظهر في الأثر: الكلام الذي يرد الإنسان عن حقه يخدم العجز المفروض عليه؛ أما معرفة الحدود التي نقصدها فتحفظ طاقته لطلب ذلك الحق، بدلاً من تبديدها في لوم نفسه على كل باب أغلقه الآخرون.
عاد سامر في آخر النهار إلى قطعة الخشب التي أفسدها. قصّ الطرف المعطوب، فصارت أقصر مما أراد، لكنها بقيت صالحة لرف صغير. ثم كتب للمدين موعداً واضحاً يطلب فيه السداد، وأغلق الرسالة القديمة التي تخص عمل ابنه. لم يهدأ كل ما فيه، ولم يصبح الغد مضموناً. وحين مد يده إلى نظارة أبيه، لم ينقلها هذه المرة؛ وضع بجوارها القلم، وترك على الرف مكاناً لشيء لم يعرف بعد ما سيكونه.

الفصل الخامس: العودة إلى الذات العارية

ما لا يحتاج إلى شاهد

ليست الذات العارية تلك التي تقول كل شيء عن نفسها، بل التي لا تحتاج إلى تزوير شيء كي تحتمل وجودها. فللإنسان حقٌّ في الستر، ومساحة لا يدخلها أحد؛ وليس كل صمت قناعاً، ولا كل اعتراف شجاعة. يبدأ القناع حين يتحول الستر إلى إنكار داخلي، وحين يغدو المرء آخر من يُسمح له بمعرفة ما يجري في قلبه. عندئذ لا يعود مشغولاً بأن يعيش، بل بأن يحرس الرواية التي صنعها عن حياته.

ولهذه الحراسة كلفة لا تظهر في الحساب: أن تؤجل حزنك حتى لا تخيب صورة المتماسك، وأن تمدح طريقاً استنزفك لأن الرجوع عنه سيكشف خطأك، وأن تسمي الخوف رضا كيلا تواجه ما يطلبه منك الرضا من صدق ومسؤولية. وليس التسليم لله إلغاءً لما نشعر به؛ فقد يطمئن القلب إلى حكمته، فيما تظل العين دامعة، وتظل الخطوة تبحث عن موضعها الآمن.

في نهاية يوم طويل، يجلس رجل في سيارته قبل أن يصعد إلى بيته. ينظر إلى رسالة كتب فيها لأصدقائه أنه «بخير دائماً»، ثم يمحوها. لا يكتب بدلاً منها خطبة عن انهياره، ولا يستدعي جمهوراً لجرحه. يضع الهاتف جانباً، ويقرّ لنفسه بأنه خائف من الغد، وأن عليه أن يراجع نفقة، ويطلب عوناً، ويعتذر عن وعد لم يعد قادراً عليه. لم تتبدل ظروفه في تلك الدقائق، لكن شيئاً من طاقته عاد إليه بعدما كان يُنفقه في الادعاء.

هنا تتكون صلابة الوعي: في القدرة على إبقاء الحقيقة حاضرة من غير أن تتحول إلى سوط. أن تعرف ضعفك فلا تتخذه هوية نهائية، وتعرف قدرتك فلا تجعلها ضماناً متوهماً ضد تقلب الأيام. الوعي الصلب يقبل المراجعة؛ لأنه لا يربط كرامة صاحبه بعصمة رأيه، ولا يجعل النجاة مرهونة بسلامة صورته أمام الآخرين.

أما تجارة الإيجابية فتريد منك وجهاً صالحاً للعرض على الدوام؛ تمنحك عبارات جاهزة، ثم تتركك تدفع وحدك ثمن المسافة بين العبارة وحياتك. وهي لا تضيق بألمك فحسب، بل تضيق بتعقيده، بما فيه من أسئلة لا تحلها نصيحة سريعة. لذلك تكون العودة إلى النفس، أحياناً، انسحاباً من سوق التفسير المستمر: لا لتستقيل من واجبك، بل لتميّز ما عليك فعله مما طُلب منك تمثيله.

ولن تعود من هذه العودة نقياً من التناقض، ولا محصناً من الخوف. يكفي أن تصير أقل استعداداً لخيانة ما تعرفه في سبيل ما يُصفق له الناس؛ وأن تجد في إيمانك سنداً للصدق والعمل، لا ذريعة لادعاء طمأنينة لم تنضج بعد.

لا تحتاج العودة إلى النفس أن تُعلَن؛ يكفي أحياناً أن يتوقف المرء عن شرحها. فالصمت ليس دائماً عجزاً عن الجواب، بل قد يكون امتناعاً عن تحويل كل ما يجري في الداخل إلى مادة قابلة للعرض والتعليق. ثمة أشياء تفقد دقتها حين تُقال قبل أوانها، وأحزان تتسع لأننا نضطر، مع احتمالها، إلى تقديم رواية مقبولة عنها. ومن حق الإنسان أن يحتفظ بمساحة لا يطالب فيها بإثبات تعافيه، ولا بتزيين تعبه كي لا يزعج الآخرين.

في تلك المساحة تستعيد القراءة شأنها: ليست سباقاً في عدد الكتب، ولا مخزناً لعبارات تصلح للنشر، وإنما لقاء بوعي آخر لا يستعجل رضاك. قد تقرأ صفحة ثم تغلق الكتاب لأن سؤالاً واحداً استوقفك؛ وقد تخالف كاتباً أحببته، فتتعلم أن الإصغاء لا يقتضي التسليم. والقراءة التي تمسنا حقاً لا تمنحنا دائماً شعوراً بالتفوق، بل تكشف مواضع جهلنا، وتمنح أحكامنا شيئاً من التؤدة.

والعبادة أعمق من أن تُختزل في وسيلة لتحسين المزاج أو مضاعفة الإنجاز. يقف العبد بين يدي الله مؤمناً، راجياً، وقد يحمل معه ما لم يجد له اسماً. لا يفسد صدقَ دعائه أن يعود بعده إلى مشقة لم تنقض، ولا يصح أن يُتخذ استمرار البلاء مقياساً لنقص إيمانه. في الصلاة موضع للسكينة، وفيها أيضاً تربية على ألا تكون الرغبة الشخصية حاكمة على معنى الحياة كله؛ نسعى ونسأل، ولا نملك الغيب ولا نستوفي حكمة الأقدار.

يعود رجل من عمله مساءً، فيضع هاتفه في درج، ويجلس إلى كتاب ترك فيه علامة منذ أيام. يسمع نداء الصلاة فيقوم، ثم يعود إلى مهمة صغيرة وعد بإنجازها. لا يحدث في تلك الليلة انقلاب باهر، ولا يجد عبارة تلخص تحوله. لكنه يفي بوعده، ويقرأ بضع صفحات، وينام من غير أن يراجع وجوه الناس بحثاً عن شاهد على صلاح يومه. هكذا قد تُسترد الحياة: بأفعال محدودة لا تحتاج إلى جمهور.

وللعمل هنا كرامته وحدوده معاً. نؤديه بإتقان لأنه أمانة ومشاركة في عمارة الأرض، لا لأنه المحكمة التي تقرر استحقاقنا للاحترام. وما يبقى من الوقت ليس فائضاً معيباً ينبغي ملؤه؛ فيه حق للجسد والأهل والتأمل.

أما العالم الرقمي، فلا يلزم اعتزاله حتى نستعيد الاختيار داخله. حسبنا أن نميّز بين نافذة نفتحها لحاجة، وباب نتركه مشرعاً حتى تصبح أصوات العابرين حديثنا مع أنفسنا. نضع له وقتاً، ونحجب بعض إشعاراته، ونتحمل فوات ما لا يلزمنا. عندئذ يجد الصمت متسعاً،

وتجد القراءة انتباهاً، ويعود العمل والعبادة إلى أوقاتهما، بعيداً عن عين نتوهم أن ما لم تره لم يحدث.

ليست الشجاعة الأخلاقية أن نخرج من كل خلاف منتصرين، بل أن نخرج منه من غير أن نخون ما نعرفه عن أنفسنا، أو نسلب الآخر حقه في أن يكون أكثر من خطئه. ثمة انتصارات يصفّق لها الناس، ثم يعود صاحبها إلى بيته وقد خسر شيئاً لا يسمعه التصفيق: قدرته على النظر في وجهه بلا مرافعة طويلة. وثمة تراجع يبدو هزيمة، لكنه يعيد إلى الضمير سلطته التي انتزعها الخوف من سقوط الصورة.

أن تقبل نقصك يعني أن تكفّ عن تكليف الآخرين بحراسة وهم كمالك. ليس مطلوباً أن تعرض عيوبك في كل مجلس، ولا أن تتخذ الاعتراف بها زينة جديدة تستدرّ الإعجاب؛ يكفي ألّا تبني مكانتك على إنكارها. قل: أخطأت، حين يتبين لك الخطأ، ثم احتمل ما تستدعيه الكلمة من إصلاح وردّ حق وتغيير عادة. فالاعتراف الذي لا يغيّر شيئاً قد يصبح طريقة مهذبة للاحتفاظ بكل شيء.

في اجتماع صغير، يعترض موظف شاب على رأي مديره، فيضيق الرجل أول الأمر، وتتحرك في صدره رغبة قديمة في إسكات الاعتراض بنبرة حاسمة. لكنه يتوقف، يسأل عن التفصيل الذي أغفله، ثم يقول أمام الحاضرين: هذا أدقّ مما اقترحت. لا تحدث معجزة، ولا تزول حساسيته للانتقاد؛ ربما يظل طوال النهار يتألم من انكشاف نقصه. غير أنه لم يجعل ألمه قانوناً يعاقب به غيره. هنا تبدأ الشجاعة: حين لا نمنح جرح الاعتداد بالنفس حقّ إصدار الأحكام.

وقبول الاختلاف امتداد لهذه التربية، لا انسحاب من الموقف ولا مساواة بين الحق والباطل. لك أن تعتقد، وأن تستدل، وأن ترفض قولاً تراه فاسداً، لكن فساد القول لا يبيح لك اختراع نيات صاحبه، ولا تحويله إلى مادة مباحة للاحتقار. قد يلزم الحزم لردّ ظلم أو صيانة حق، ومع ذلك يبقى للعدل أدبه وحدوده. والإيمان الذي يوقظ مراقبة الله يذكّر المرء بأن خصومته أيضاً داخلة في الحساب، وأن يقينه لا يعفيه من الإنصاف.

أما السوق التي تبيع الإنسان نسخة لامعة من نفسه، فتعدّه بأن النضج سيجعله محبوباً دائماً، متوازناً دائماً، قادراً على امتصاص كل إساءة بابتسامة. وتلك مطالبة مستحيلة تزيد العثرة ثقلاً، إذ تجعل الغضب العابر فضيحة، والحيرة فشلاً، والحدود الشخصية علامة على قلة الصفاء. لا تحتاج العودة إلى الذات هذا الامتحان المتصل؛ تحتاج صدقاً يميّز بين ما نعجز عنه اليوم وما نتهرّب من مسؤوليته.

سنظل نتعثر، وقد نحتاج وقتاً كي نعتذر، ومسافة كي نحسن الاستماع. وليس الرجاء وعداً بمحو هذه المشقة، بل عوناً على احتمالها من غير قنوط. يكفي أن يصبح المرء أقدر على مراجعة

نفسه، وأقل استعجالاً في إدانة سواه، عندئذ يتسع له العيش بين الناس، لا لأنه شابههم جميعاً، بل لأنه لم يعد يحتاج إلى عداوتهم كي يطمئن إلى وجوده.

ميثاق العودة

لا تحتاج العودة إلى الذات العارية قَسَماً يعلو على طاقتنا، بل عهداً يصلح للأيام التي تضعف فيها العزيمة أيضاً. وهذه بنوده، نرجع إليها لنستدرك، لا لنجلد أنفسنا كلما تعثرنا:

١. أن أسمّي ما أعيشه باسمه: الخسارة خسارة، والخوف خوف، من غير أن أجعل الاسم حكماً مؤبداً على حياتي، أو أزوّر الوقائع كي تبدو محتملة.

٢. أن أصون حقي في الحزن، فلا أعتذر عن دمعة صادقة، ولا أطالب قلبي بأن ينجز التعافي وفق جدول يريح المتفرجين.

٣. أن أفصل بين قيمتي ونتيجتي؛ فما لم أنله قد يكشف نقصاً في الوسيلة أو قسوة في الظروف، ولا يختصر حقيقة إنسانيتي.

٤. أن أعمل بما أستطيع، وأراجع ما أخطأت، ثم أترك للقدر ما ليس في يدي؛ فالتوكل صدق في السعي، لا ضمان للثمرة.

٥. أن أرفض شراء الطمأنينة من بائع يعدني بحياة بلا كلفة، وأن أسأل عمّا يخفيه الوعد قبل أن أُفتن ببريق عبارته.

٦. أن أراجع دوري في ألمي من غير تهرّب، وأن أميّز مسؤوليتي مما فُرض عليّ؛ فلا أحمل وزر المعتدي كي أبدو أعمق وعياً.

٧. أن أختار من الصحبة من يتسع لحقيقتي، لا من يشترط عليّ وجهاً مشرقاً دائماً، وأن أمنح الآخرين هذا الاتساع نفسه.

٨. أن أحفظ للخصوصية حرمتها؛ فليس كل جرح مادة للنشر، وليس صدق التجربة مرهوناً باعتراف الجمهور بها أو تصفيقه لصاحبها.

٩. أن أطلب العون حين أحتاجه، بلا استعراض للعجز ولا تقديس للاكتفاء؛ فاليد الممدودة قد تكون باباً ييسّره الله لعبده.

١٠. أن أجعل للأمل عملاً صغيراً يشهد له: ديناً أقضيه، أو اعتذاراً أؤديه، أو واجباً أتمّه، بدلاً من الاكتفاء ببلاغة التمنّي.

١١. أن أقبل تعديل قناعاتي حين تنكشف حجتي الضعيفة، وأحفظ من التواضع ما يمنعني من تحويل تجربة شخصية إلى قانون يحاكم الناس.

١٢. أن أعود إلى هذا العهد برفق؛ فإن خالفته أصلحت ما استطعت، ولم أجعل التعثر ذريعة لهجر الطريق، أو مناسبة لاحتقار نفسي.

الحقيقة والرحمة والإيمان

وعند هذا الحد، لا تعود الذات العارية ذاتاً متروكة في البرد؛ إنها ذات نزعت ما كان يخنقها، وتعلّمت أن تطلب الستر من غير تزوير. الحقيقة تمنعها أن تعيش على الكذب، والرحمة تمنعها أن تتخذ الحقيقة سوطاً، والإيمان يفتح لها أفقاً لا تحيط به حساباتها.

ليس المطلوب قلباً لا يرتجف، بل قلباً لا يخون ما عرفه طلباً لراحة عابرة. ولعل أصدق الطمأنينة أن نقف بين يدي الله بما فينا، نسأله العون والمغفرة، ونؤدي حق يومنا؛ فلا ندّعي امتلاك الغد، ولا نيأس من رحمته إن جاء على غير ما نحب.

حين لا تكون العينُ مرآةً

في آخر السوق، حيث تضيق الأزقة وتخفّ لافتات المتاجر، كان رجل يرمّم الكتب القديمة في حجرة لا تتسع إلا لطاولة وخزانة وكرسيين. جاءه شاب بكتاب ورثه عن أبيه، ممزق الغلاف، متآكل الحواشي، وقال وهو يقلّب صفحاته: «أصلح ظاهره فقط؛ لن يفتحه أحد».

هزّ الرجل رأسه، ثم أمضى وقتاً طويلاً يخيط الأوراق من الداخل، ويسوّي مواضع لن تراها عين حين يستقر الكتاب على الرف. وحين سأله الشاب عن هذا العناء، أجاب من غير أن يرفع رأسه: «لكنني سأعرف كيف أصلحته».

لم تكن العبارة إعلاناً عن فضيلة، ولا محاولة لانتزاع إعجاب الزبون. قالها كما يذكر المرء حقيقة تخص أدوات عمله. كان في وسعه أن يخفي العيب تحت جلد جميل، وأن يحصل على الأجر نفسه، لكنه لم يكن يعمل أمام عين الشاب وحدها. ثمة معرفة ستبقى معه بعد انصرافه: معرفته بما صنع، وبما كان يستطيع أن يفعله فلم يفعله. هنا تبدأ مسافة دقيقة بين من يحتاج إلى أن يُرى صالحاً، ومن لا يطيق أن يستخف بما يعرفه عن نفسه.

الذات التي لا تحتاج جمهوراً كي تعرف قيمتها ليست ذاتاً مستغنية عن المحبة، ولا قلباً أُغلق حتى صار يفسّر عجزه عن الألفة على أنه اكتفاء. إنها تحتاج إلى الرفقة والاعتراف والإنصاف؛ فالإنسان ينمو في وجوه البشر، ويتعلم اسمه أول مرة من أفواههم. لكنها لا تجعل استمرار هذه الوجوه شرطاً لاستمرار كرامتها. تستطيع أن تفرح بالثناء من غير أن تستأجر منه هوية، وأن تحزن للإهمال من غير أن تحوّله إلى حكم نهائي على استحقاقها للوجود.

المشكلة النفسية ليست في رغبتنا أن يقدّرنا الآخرون، بل في أن نفقد القدرة على تقدير أي شيء في أنفسنا قبل وصول إشارتهم. عندئذ يصير الفعل معلّقاً بنتيجته الاجتماعية: هل لوحظ؟ هل أُعجبوا؟ هل سبقني أحد إلى التصفيق؟ وقد ينجز المرء عملاً نافعاً ثم يشعر بخوائه،

لا لأن العمل ناقص، بل لأن الشهادة الخارجية تأخرت. وهكذا يُنقل مركز الإحساس بالقيمة من خبرة الفعل إلى صدى الفعل؛ ويصبح الصدى، وهو أضعف الأشياء وأسرعها زوالاً، مسؤولاً عن حمل حياة كاملة.

وتساعد البيئة الاجتماعية على هذا الانتقال حين تجعل كل فضيلة قابلة للعرض، وكل تجربة مادة محتملة للفرجة. لا تعود الرحلة رحلة إلا إذا شُوهدت، ولا القراءة قراءة إلا إذا أُعلن عنها، وربما بدا الصمت نفسه تقصيراً في تسويق الذات. وليس الخلل في مشاركة الناس أفراحهم وأعمالهم، وإنما في تسرّب عين متخيّلة إلى داخل التجربة قبل وقوعها. يجلس المرء مع أمه، وفي ذهنه صورة الجلسة؛ ويزور مكاناً، لكنه يختبر منذ اللحظة الأولى كيف سيبدو فيه. تتقدّم رواية الحياة على عيشها، حتى يخسر صاحبها نصيبه الأول منها.

غير أن الاستقلال عن الجمهور لا يتحقق بقرار متعالٍ من نوع: لا يعنيني أحد. فكثيراً ما تكون هذه العبارة آخر أشكال الارتهان لمن نخاصمهم؛ ننفق أعمارنا في إثبات أننا لا نحتاجهم، فنظل ندور حولهم من الجهة الأخرى. الاستقلال الأهدأ ينشأ حين تتراكم للإنسان خبرات لا تحتاج إلى إعلان: وعد وفى به حين كان النكث مأموناً، ومهارة تعلّمها على مهل، واعتذار أدّاه من غير شهود، وعمل أتمّه لأن نقصه كان يؤذيه هو قبل أن يعيبه الناس. هذه الوقائع الصغيرة تصنع معرفة بالنفس لا يمنحها التصفيق ولا يسهل على الصمت محوها.

ومن الوجهة الفلسفية، ينبغي التمييز بين قيمة الإنسان وقيمة أدائه. فالإنسان ليس مشروع نجاح إن أخفق سقط حقه في الاحترام، وليس مجموع مهاراته ولا مرتبته بين أقرانه. له كرامة لا تبدأ من تفوقه، ثم عليه مسؤوليات يُحسن فيها أو يقصّر، وتحتاج إلى محاسبة. الخلط بين الأمرين يجعل النقد تهديداً للوجود، ويجعل المديح صكّ نجاة. أما الفصل بينهما فيتيح شجاعة نادرة: أن أقول إنني أخطأت من غير أن أقول إنني عدم، وأن أصلح عملي من غير أن أحتقر نفسي.

وفي أفق الإيمان، يكتسب هذا الفصل عمقاً آخر. فليس غياب الجمهور غياباً للمعنى، ولا خفاء العمل سقوطاً له من الحساب. يعرف المؤمن أن ما يستتر عن الناس لا يستتر عن الله، وأن النية ليست زينة تُضاف إلى العمل بعد تمامه، بل جهة يتوجه إليها القلب وهو يفعله. لكن هذا الوعي لا يجعل صاحبه مكتفياً بادعاء الطهارة، ولا مخوّلاً لإصدار شهادة براءة لنفسه؛ إنه يردّه إلى التواضع والمراجعة، ويحرّره في الوقت نفسه من توهّم أن أعين البشر هي المحكمة الأخيرة.

وقد يُعترض هنا: أليست القيمة التي يقررها المرء لنفسه باباً للوهم؟ ألا يستطيع الكسول أن يسمّي عجزه استقلالاً، والمؤذي أن يحتمي بعبارة «أنا أعرف نفسي» كلما واجهه أحد بما

صنع؟ ثم إن الناس ليسوا جمهوراً عابراً دائماً، منهم المعلّم والصديق وصاحب الحق، ومن دون أحكامهم قد يبني الإنسان صورة مريحة لا تشبهه. أليس الاحتياج إلى الاعتراف المتبادل جزءاً من إنسانيتنا، لا عيباً ينبغي التخلص منه؟

هذا اعتراض لازم، لأن الاستغناء عن التصفيق لا يعني الاستغناء عن الشهادة. الفرق أنني أطلب من الآخر أن يساعدني على رؤية ما فعلت، لا أن يمنحني الإذن بأن أكون. أستمع إلى نقد محدد، وأردّ مظلمة، وأختبر دعواي بنتائجها، وأترك لمن خالطني حق وصف ما أصابه مني. أما الضجيج الذي لا يعرف عملي، والمقارنة التي لا تعرف ظروفي، فلا أمنحهما السلطة نفسها. الذات الراسخة ليست التي لا تتأثر، بل التي تميّز بين ما يستحق أن يغيّرها وما لا يستحق إلا أن يمر.

ولعل امتحان هذه الرسوخ يقع في الأيام التي لا يحدث فيها شيء لافت: يوم تؤدي فيه واجباً عادياً، ولا تتلقى امتناناً، أو تتراجع عن خصومة، فيظن بعضهم أنك انهزمت، أو تتعلم ببطء فيما يحتفل الآخرون بنتائج أسرع. لا تكفي عندئذ الكلمات الجميلة عن الكرامة. تحتاج إلى أن تحتمل زمناً لا يصفّق لك، من غير أن تفسد العمل طلباً للالتفات، وأن تمنح نفسك راحة لا تستحقها بالإنجاز وحده. فالذات ليست آلة لإنتاج البراهين على جدارتها، حتى لو كان القاضي هذه المرة هو الضمير.

ربما عاد الشاب إلى بيته، ووضع كتاب أبيه في الخزانة، ولم يخبر أحداً بما أصلحه الرجل في داخله. وربما نسي وجه المرمّم، وبقيت الصفحات متماسكة كلما فتحها. لا نعرف إن كان الرجل راضياً عن حياته، ولا إن كانت حرفته قد أنصفته في رزقه؛ فحركة واحدة لا تكشف إنساناً كاملاً. لكنها تترك لنا موضعاً نتأمل عنده: يد تستطيع أن تختصر، ثم تختار أن تتمّ، فيما السوق يمضي إلى ضجيجه، والخيط يدخل مرة أخرى في موضع لن يراه أحد.

حين تصير الحقيقة عادةً لا لافتة

عاد من ندوة عنوانها «الإنسان أولاً»، ووضع الكتيّب على مائدة المطبخ. كان قد تحدّث بحماسة عن كرامة الناس، وصفّق طويلاً لكلمة عن مسؤولية الفرد. عند الباب، سألته ابنته إن كان سيصلح رفّ كتبها كما وعدها منذ أسبوعين. قال، وهو يفتح هاتفه: «غداً، إن شاء الله». لم تعاتبه؛ حملت الكتب المتساقطة وأعادت ترتيبها على الأرض. وفي تلك الحركة الهادئة رأى، للمرة الأولى، المسافة بين الإنسان الذي يدافع عنه أمام الجمهور، والإنسان الصغير الذي ينتظر منه مسماراً في خشبة.

لم تقع له صدمة كبرى، ولم يقرّر أن يبدأ حياة جديدة. أغلق هاتفه، وأخرج صندوق الأدوات، ثم اكتشف أنه لا يملك القطعة المناسبة. كان يستطيع أن يجعل هذا النقص عذراً آخر، لكنه قال لابنته: «أخّرتك كثيراً. سأشتريها غداً بعد العمل، وإن لم أستطع سأخبرك قبل أن تنتظريني». لم يكن الرفّ قد استقام بعد، غير أن شيئاً استقام في اللغة: لم تعد العبارة ستاراً يغطّي التأجيل، بل صارت التزاماً له وقت وحدود وشخص سيتحمّل أثره.

ليست المشكلة في الشعارات أنها كبيرة؛ فالإنسان يحتاج إلى المعاني التي تتجاوز حاجته العاجلة، وتجمع المبعثر من جهده. المشكلة تبدأ حين يمنحنا إعلان القيمة شيئاً من الرضا الذي كان ينبغي أن ينتظر تحقيقها. نقول إننا نحترم الإنسان، فنشعر كأننا أدّينا قسطاً من احترامه، قبل أن نصغي إلى عامل أنهكه الوقوف، أو نردّ حقاً صغيراً لا يطالبنا به صاحبه خجلاً. عندئذ تنفصل حرارة اللغة عن برودة المعاملة، ويغدو الشعار وسيلة لتسكين الضمير بدلاً من إيقاظه.

والنفس بارعة في اختيار الامتحانات التي تضمن فيها لنفسها النجاح. يسهل أن نرفض ظلماً بعيداً لا ننتفع منه، ويصعب أن نراجع امتيازاً قريباً وفّر لنا الراحة. ويسهل أن نتخيّل تضحية استثنائية، بينما نضيق بتكلفة يومية متواضعة: أن ننتظر دورنا، أو نذكر فضل شريك، أو نمتنع عن نقل حكاية لا نعرف صدقها. ليست هذه التفاصيل أقل أخلاقية لأنها بلا مشهد بطولي؛ إنها المواضع التي يتوقّف فيها الخيال عن تجميلنا، وتبدأ أفعالنا في تقديم الشهادة.

من هنا تأتي قيمة العادة الصغيرة الصادقة. إنها تنقل السؤال من «أيّ إنسان أريد أن أبدو؟» إلى «ماذا سيفعل غيري بناءً على ما يصدر مني؟». من يعتاد أن يعتذر عن موعد لا يستطيع الوفاء به يحفظ للآخر وقته وحقه في ترتيب يومه. ومن يراجع حساباً فيه خطأ لمصلحته يتعلّم ألّا يجعل غفلة الناس مورداً خاصاً. تتكوّن الاستقامة هنا عبر أفعال محددة، يمكن ملاحظتها وإصلاحها، لا عبر انطباع كريم نحمله عن أنفسنا.

ولهذه العادات أثر نفسي لا يأتي من ضآلة المطلوب وحدها، بل من قابليته للإنجاز. فالوعود الشاملة تضع المرء أمام صورة مكتملة يستحيل بلوغها دفعة واحدة، وقد يدفعه تعثّره إلى ترك المحاولة كلها. أما الفعل المحدد فيمنحه فرصة أن يكتشف قدرته من غير أن يدّعي الكمال. يستطيع أن يقلّل المقاطعة في حديث واحد، وأن يتعلّم كيف يصغي، ثم يعيد المحاولة حين يفشل. ومع التكرار، تصبح الصراحة أقل تهديداً لصورته، ويغدو الاعتراف بالتقصير باباً للعمل، لا حكماً نهائياً على قيمته.

لكن العادة قد تتحوّل بدورها إلى قشرة إذا انقطع اتصالها بالانتباه. قد يلتزم المرء بالمواعيد ويقسو على من أعاقه ظرف لا يملكه، أو يدقّق في أمانته المالية ويستبيح سمعة مخالفه. لذلك

لا تكفي قائمة سلوكيات نؤشّر عليها في نهاية النهار. الصدق يقتضي أن نسأل عمّا تخدمه العادة: هل تجعلنا أعدل، أم أشد إعجاباً بانضباطنا؟ وهل نرى بها حاجة الآخر، أم نستخدمها دليلاً على تفوّقنا عليه؟ إن فضيلة لا تسمح بمراجعة النفس قد تصبح حارساً جديداً لوهمها.

وفي الاجتماع، تصنع هذه الأفعال بنية غير مرئية للثقة. حين يعرف الموظف أن الاعتراض لن يعرّضه للإهانة، يستطيع أن يكشف الخطأ قبل أن يتّسع. وحين يعرف الطفل أن السؤال لا يستدعي السخرية، يقلّ احتياجه إلى ادّعاء الفهم. وحين يُحترم الاتفاق في السوق، لا يضطر كل متعامل إلى بناء حصن من الشك حول أبسط معاملة. لا تُقاس ثمرة العادة بالفعل نفسه فقط، بل بما تعفي الآخرين منه: ترقّب الأذى، وإعداد الأعذار، وإهدار الطاقة في حماية حقوق كان ينبغي أن تكون مأمونة.

وفلسفياً، تضعنا العادة أمام حقيقة مزعجة ومحرّرة معاً: الذات ليست ملكية منجزة نحتفظ بها في الداخل، ثم نخرجها نقية كلما أسأنا التصرف. إنها أيضاً ما نسمح له بأن يتكرّر. لا يمحو هذا حرية الاختيار، ولا يجعل الإنسان أسير ماضيه؛ بل يبيّن أن الحرية تحتاج إلى مواضع نتدرّب فيها. من ينتظر لحظة خارقة ليصير صادقاً قد يؤجل صدقه طويلاً، بينما تتيح له واقعة عادية أن يختار خلاف مألوفه، فيوسّع بالتدريج المسافة بينه وبين ما كان يستسلم له.

وللإيمان هنا أفق يحرّر العمل من حاجته الدائمة إلى الشهود. فما لا يراه الناس لا يفقد وزنه عند الله، وما يُنجز بعيداً عن المديح ليس ضائعاً. غير أن استحضار هذا المعنى لا يمنح صاحبه حق تزكية نفسه أو التفتيش في نيات غيره؛ إنه يردّه إلى مسؤوليته. وكذلك الإيمان بالقدر لا يعفيه من الأخذ بالأسباب، بل يعلّمه حدود سلطانه: عليه أن يصدق في وعده ويبذل وسعه، وليس له أن يضمن جميع النتائج. ولهذا ينبغي ألّا تُستخدم عبارة الرجاء الصادقة لإخفاء غياب العزم.

قد يُعترض: أليس الانشغال بهذه التفاصيل تراجعاً عن مواجهة الظلم الكبير؟ ماذا يفعل رفّ أُصلح، أو موعد احترُم، أمام الفقر والفساد وسوء توزيع السلطة؟ وهو اعتراض لازم، لأن خطاب العادات قد يُستعمل لتأديب المتضرّرين بدلاً من مساءلة من يملكون القرار. لا يجوز أن نطالب العامل بحسن الابتسام كي نصرف النظر عن أجره، ولا أن نحمّل الفرد وحده ما تصنعه مؤسسات جائرة.

والجواب أن العادة الصادقة ليست بديلاً عن العدل العام، وإنما اختبار لطريقة السعي إليه. من يطالب بحقوق الناس ثم يُسكت شركاءه لا يهدم مطلبه، لكنه يضعف أهليته لحمله. والمؤسسة التي تريد الإنصاف تحتاج إلى إجراءات متكررة تحميه: حق اعتراض واضح، وحساب يمكن

مراجعته، ومسؤول يشرح قراره. هنا تكبر العادة حتى تصير نظاماً، ويجد المبدأ طريقاً يعبر منه إلى الحياة المشتركة.
بعد أيام، استقام الرفّ، وبقي في الجدار ثقب زائد أخطأ الأب موضعه. أراد أن يخفيه سريعاً، ثم تركه إلى أن يشتري ما يصلحه. كانت ابنته ترتّب كتبها حين سألته عن وعد آخر، فتأنّى قبل الإجابة؛ ولعل تلك الوقفة القصيرة كانت المكان الذي بدأت فيه حياته تتّسع لما يقول.

أن يكون لك صوتٌ لا يجرح الوجوه

بعد صلاة العشاء، اجتمعت الأسرة في غرفة الجلوس التي شهدت قراراتها الكبيرة: زواجاً، وسفراً، وبيع بيت قديم. كان الأب قد وضع مفاتيح متجره أمام ابنه، كأنه يضع بين يديه خلاصة عمره. قال بهدوء: «حان الوقت لتقف مكاني». لم يمدّ الابن يده. نظر إلى المفاتيح، ثم قال إنه يريد أن يعمل في التعليم، وإنه قد تقدّم بالفعل إلى مدرسة. تحرّك العم في مقعده، وقال: «هكذا تكافئ أباك؟». أما الأم فأخذت تسوّي طرف السجادة بقدمها، كأنها تصلح في النسيج ما انشقّ فجأة في الكلام.
كان أسهل على الابن أن ينفجر دفاعاً عن حريته، وأسهل على الأب أن يستدعي سنوات التعب لتكون شهود اتهام. لكن الابن قال: «أعرف ما بذلتَه، ولا أريد أن أتركك وحدك. فلنتفق على ما أستطيع حمله معك، من غير أن أعيش عمراً لا أحسنه». لم يتحول المجلس إلى مصالحة مكتملة؛ بقي الأب صامتاً، وبقي العم مستاءً. غير أن الابن جاء صباح اليوم التالي، وفتح المتجر حتى الظهر، ثم ذهب إلى مقابلته في المدرسة. كان يحاول أن يجعل اختلافه مسؤولية، لا إعلان قطيعة.
تكشف هذه اللحظة أن أصعب الاختلاف ليس ما يقع بين غرباء، بل ما يقع داخل المحبة. فالغريب يعترض على رأيك، أما القريب فقد يشعر أن رأيك يعترض على مكانته في قلبك. لذلك تختلط المسائل: يتحول اختيار المهنة إلى امتحان للوفاء، وتصبح ملاحظة على عادة عائلية إنكاراً للجميل. وعندئذ لا يعود الإنسان مطالباً بتفسير موقفه فقط، بل بإثبات أنه ما زال ابناً محباً، أو صديقاً مخلصاً، أو مؤمناً صادقاً. وهذا عبء يجعل الصمت مغرياً، ولو كان ثمنه غياب المرء عن حياته.
من هنا تنشأ النسخ المتشابهة أحياناً: لا من اقتناع عميق، بل من خوف عميق. يتعلم المرء أن لبعض الآراء مكافأة عاطفية، وأن لبعض الأسئلة عقوبة باردة: وجه ينغلق، أو مجلس يفقد دفأه، أو محبة توضع موضع الشك. فيبدأ بمراقبة عباراته، ثم رغباته، ثم خواطره قبل

أن تتكوّن. ومع الزمن، قد يعجز عن التمييز بين ما يؤمن به وما اعتاد قوله كي يبقى مقبولاً. إنه لا يكذب دائماً على الآخرين، ربما صار يجهل الموضع الذي يبدأ عنده صوته.
لكن الخروج من هذا المأزق لا يكون بتقديس المخالفة. فثمة من يتخذ الاعتراض هوية، ويحسب كل موافقة هزيمة لاستقلاله. وهذا أيضاً يعيش تابعاً، لأن قراره لا يصدر عن فحص المسألة، بل عن ضرورة الوقوف في الجهة المقابلة. من يقول نعم خوفاً من الناس، ومن يقول لا ليبرهن أنه لا يخافهم، قد يظلان مشدودين إلى الحبل نفسه. الاستقلال الأعمق أن توافق حين يطمئن عقلك، وأن تخالف حين يستيقظ اعتراضك، من غير حاجة دائمة إلى جمهور يشهد أنك مختلف.
وللجماعة حاجتها المفهومة إلى التشابه؛ فهو يخفف عنها قلق التوقع، ويجعل العلاقات أكثر قابلية للفهم. تعرف الأسرة كيف يتصرف أفرادها، ويعرف الأصدقاء أي كلام يمرّ بينهم بلا احتكاك. غير أن هذه الراحة تصبح خطراً حين تتحول إلى حق في تشكيل الضمائر. فالمحبة لا تمنح أحداً ملكية باطن غيره، كما أن الخبرة لا تعصم صاحبها من الخطأ. ويمكن للإنسان أن يعترف بفضل من ربّاه، ثم يرى ما لم يره؛ فثمرة التربية ليست أن يبقى الابن محتاجاً إلى العين التي أبصر بها أول مرة.
ولا يحتاج الإيمان، لكي يبقى حياً، إلى إلغاء هذه المسافة الداخلية. فالمؤمن مسؤول عن قصده وعمله، لا عن تمثيل صورة اجتماعية ترضي الناظرين. وهو يتلقى من الوحي ميزاناً يتجاوز أهواءه، لكنه لا يجعل أهواء جماعته وحياً آخر. وبين احترام العالم أو المربي، وإعفاء النفس من الفهم والسؤال، فرق يحفظ للتعلّم كرامته. كما أن بين التسليم لله، والتسليم لكل من يتكلم باسمه، فرقاً يحفظ للقلب تواضعه ويمنع البشر من احتلال موضع ليس لهم.
وليس معنى ذلك أن يصنع كل امرئ ديناً على مقاس رغبته؛ فهذا شكل آخر من الارتهان، تكون فيه الشهوة هي الجماعة الخفية التي نطيعها. إنما المقصود أن يطلب المرء العلم بأمانة، وأن يعرف حدود معرفته، وأن يفرّق بين أصل ثابت واجتهاد بشري، وبين النص وفهمه، وبين البر والعادة التي أُلبست ثوب البر. وقد يكتشف بعد السؤال أن الصواب مع من خالفه؛ حينئذ يكون رجوعه نمواً في حريته، لأن حريته لم تكن وعداً بألا يتغير.
أما أدب الاختلاف فليس زينة لفظية نضعها فوق رغبة مكتومة في الإذلال. قد تبدأ العبارة بقولنا «مع كامل الاحترام»، ثم تمضي لتسلب المخالف عقله أو نيته. الأدب الحقيقي عمل أشق: أن نصف رأيه بما يرضى أنه رأيه، وأن نسأل قبل أن نحاكم، وألا نستدعي أضعف لحظاته لإسقاط أقوى حججه. وهو يقتضي أيضاً أن نختار وقت الكلام؛ فالحقيقة التي تُلقى أمام جمع بقصد إحراج صاحبها قد تتحول، في وجدانه، إلى خصم يصعب عليه الاقتراب منه.

ومع ذلك، لا يعني الأدب أن نحو حدوده. تستطيع أن تقول: «لن أشارك في هذا»، دون أن تقول: «أنتم بلا ضمير». وتستطيع أن توقف حديثاً مهيناً، أو تغادر مجلساً يتكرر فيه الاستخفاف بك، دون أن تجعل المغادرة مسرحاً للانتقام. ليست كل علاقة قادرة على احتمال الصراحة دفعة واحدة، وليست كل علاقة جديرة بأن نستهلك أعمارنا في استرضائها. الرحمة تحتاج أحياناً إلى مسافة، لكيلا تنقلب الصحبة إلى تدريب يومي على التصاغر، أو ينقلب الصبر إلى اسم مهذب للتنازل المستمر عن الحق.

وقد يعترض معترض: أليس في هذا تعظيم للفرد يضعف الروابط، ويجعل كل تكليف قابلًا للتفاوض؟ ومن يضمن أن يكون «صوتي الخاص» غير صوت كبريائي؟ والاعتراض وجيه؛ فالإنسان يستطيع أن يسمّي أنانيته استقلالاً، كما تستطيع الجماعة أن تسمّي سيطرتها وفاءً. وليس الحل أن نثق بكل رغبة داخلية، بل أن نمتحنها: هل أقبل نتائج اختياري؟ هل أؤدي ما عليّ لمن أخالفهم؟ هل أتيح لهم الاعتراض كما أطلبه لنفسي؟ وهل يبقى موقفي مقنعاً إذا زال تصفيق الذين يشبهونني؟

بهذه الأسئلة لا يعود الاختلاف سباقاً إلى الغلبة، بل تدريباً على الجمع بين صدق الموقف وعدل المعاملة. وقد بقي الأب أسابيع لا يسأل ابنه عن المدرسة، ثم سأله ذات مساء: «هل يفهمون منك؟». لم يكن السؤال اعتذاراً صريحاً، ولا موافقة على كل شيء، لكنه كان موضعاً صغيراً اتسع فيه القلب لحياة لم يخترها. رفع الابن عينيه إليه، وبدأ يحكي عن تلميذ لم يكن يرفع يده، ثم سأل أخيراً سؤاله الأول.

رسالة المؤلف

كتبتُ هذا الكتاب لأن الإنسان المعاصر لم يعد يواجه الألم وحده؛ بل يواجه أيضاً ضغطاً مستمراً كي يخفيه. صار مطالباً بأن يبدو سعيداً، وأن يقارن نفسه بغيره، وأن يوافق الجماعة، وأن يتصرف كأنه يملك السيطرة على كل شيء. وفي خضم هذا الضجيج، قد يبتعد المرء عن صوته الداخلي من غير أن يشعر.

ليست هذه الصفحات دعوة إلى التشاؤم، ولا خصومة مع الأمل أو الإيمان. إنها محاولة للتمييز بين الرجاء الصادق والطمأنينة المزيفة، وبين تطوير النفس وبين تحويل الإنسان إلى مشروع لا ينتهي من الإصلاح والبيع والتقييم. أردتُ أن أقول للقارئ: لك أن تحزن دون أن تخجل، وأن تسعى دون أن تتكبر، وأن تعترف بحدودك دون أن تفقد كرامتك.

إذا وجدتَ في هذا الكتاب فكرة أزعجتك، فلا تتعجل رفضها ولا قبولها. اترك لها وقتاً، واسأل نفسك أين لمستك، وما الذي تحاول حمايته في داخلك. فالوعي لا يبدأ دائماً من إجابة مريحة؛ أحياناً يبدأ من سؤال صادق، ومن شجاعة أن نرى حياتنا بعيداً عن عيون الآخرين.

أتمنى أن تخرج من هذه الرحلة لا بنسخة مثالية من نفسك، بل بعلاقة أصدق معها؛ علاقة تجمع الحقيقة بالرحمة، والسعي بالتوكل، والاختلاف بالأدب، والإيمان بالمسؤولية.

© 2026 — جميع حقوق التأليف والنشر محفوظة للمؤلف: علي إبراهيم خليل الحجاجي.
لا يسمح بنسخ الكتاب أو إعادة نشره كاملاً دون إذن خطي من المؤلف، مع مراعاة الاقتباسات المسموح بها قانوناً.

حين تسقط الأقنعة، لا يبقى الإنسان عارياً من المعنى؛ يبقى أقرب إلى الحقيقة.

الوعي كالمرايا؛ لا يعكس ليعكس ما نريد أن نرى، بل ما نخشى أن نواجهه. والطمأنينة المزيفة ليست سوى غطاءٍ لعمق الخوف.

في رحلة لتفكيك طبقات الوهم التي تغلّف حياتنا وفهمنا للذات، يقدم هذا الكتاب دعوة جريئة لمحاكمة الأفكار الموروثة وبناء وعي حقيقي صلب. إنه مواجهة شاقة ونزيهة مع النفس.

علي ابراهيم خليل الخفاجي